عائض القرني

على بوابة الوحي

OBEIKAN.COM

العبيكان
Obeikan

© مكتبة العبيكان، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القرني، عائض بن عبدالله

على بوابة الوحي. / عائض بن عبدالله القرني - ط ٤ . - الرياض، ١٤٢٩هـ.

١٣٢ ص؛ ١٦,٥× ٢٢٤ سم.

ردمك: ٨ - ٤٤٥ - ٥٤ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

١ ـ القرآن - التفسير الحديث أ ـ العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٣٤٦ / ١٤٢٩

رقم الإيداع: ١٣٤٦ / ١٤٢٩

ردمك: ٨ - ٤٤٥ - ٥٤ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

الطبعة الرابعة

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

شركة العبيكان للأبحاث والتطوير

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

امتياز التوزيع

شركة مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

OBEIKAN.COM

OBEIKAN.COM

OBEIKAN.COM

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المعجـزة الخـالدة	٩
﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾	١٣
﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾	١٥
﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾	٢٠
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	٢٥
﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	٢٩
﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾	٣٢
﴿هُوَ الأَبْتَرُ﴾	٣٤
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾	٣٨
﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾	٤٠
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾	٤٥
﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾	٤٨
﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾	٥٠
﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾	٥٢
﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾	٥٤
﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾	٥٥

OBEIKAN.COM

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ... ٥٦
﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ ... ٥٨
﴿ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ ... ٥٩
﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ... ٦٠
﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ... ٦٢
﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ ... ٦٤
﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ ... ٦٥
﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ ... ٦٦
﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ ... ٦٨
﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ ... ٧٠
﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ... ٧٣
﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ... ٧٦
﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ ... ٧٩
﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ ... ٨٢
﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ... ٨٥
﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ ... ٨٨
﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ ... ٩١
﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ ... ٩٤
﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ ... ٩٧
﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ ... ١٠٠

OBEIKAN.COM

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ ... ١٠٢
﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ... ١٠٥
﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ ... ١٠٧
﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ... ١١٠
﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ ... ١١٢
﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ... ١١٤
﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ ... ١١٧
﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ... ١٢٠
﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ ... ١٢٣
﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ... ١٢٦
﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ... ١٢٩
﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ... ١٣٢
﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ... ١٣٥
﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ... ١٣٨
﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ... ١٤١
﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ ... ١٤٤
﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ ... ١٤٧
﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ ... ١٤٩
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ... ١٥٢

OBEIKAN.COM

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ... ١٥٥
﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ ... ١٥٨
﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ ... ١٦٢
﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ ... ١٦٨
﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ ... ١٧١
﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ... ١٧٤
﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ... ١٧٧
﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ ... ١٨١

OBEIKAN.COM

المعجزة الخالدة

المقدمة:

أحمدك يا رب حمد مقر بربوبيتك، معترف بألوهيتك، متعبد بأسمائك، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، أنت الحي القيوم الذي لا يموت والإنس والجن يموتون، أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك وصفيك وخليلك، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

أما بعد، فإن القرآن هو معجزة محمد عليه الصلاة والسلام التي بعث بها، وهي معجزة دائمة باقية دوام الإسلام وبقاء الحق.

والقرآن أسمى وأجل من أن يمدحه بشر؛ لأنه كلام رب البشر، وأعلى وأعظم من أن يثني عليه مخلوق؛ لأنه تنزيل من الخالق، وإن أحسن الأوقات وأسعد اللحظات حين يعيش العبد مع آياته البينات تالياً متدبراً خاشعاً.

OBEIKAN.COM

وقد أحسن علماء الأمة في تفسير كتاب الله، فمنهم من قصد اللغة في القرآن فشرح اللفظ وبسط القول فيه، ومنهم من قصد الآثار وما ورد في الآية من أحاديث وأخبار فجمع وأوعى، ومنهم من أراد مقاصد الكلام وفقه كتاب الله فاستنبط من الآية ما فتح به الفتاح العليم.

والناس كل له مذهب في قراءته ومطالعته؛ فما يعجب هذا لا يعجب ذاك؛ لأنه قد علم كل أناس مشربهم، ثم إنهم لا يصبرون على طعام واحد ولا يدومون على حال واحدة، فمهما كتب كاتب من القرآن وجد لما كتبه محبين ومعجبين، وقد استعنت الله في كتابة ما أستطيعه من معان تظهر لي عند تلاوة كتابه لو لم أستفد من كتابتها إلا أنها كانت سبباً لتدبري القرآن والتأمل في حكمه ومواعظه وقصصه وأخباره وأحكامه وأمثاله لكان ذلك أجل فائدة وأحسن عائدة، وقد حرصت على أن يكون ما كتبته وعظاً لمن قرأه ولمن سمعه، وتربية لمن طالعه وتأمله، وجانبت الفنون التي ذكرها المفسرون في تفاسيرهم؛ كالمسائل اللغوية والنحوية، وفروع الفقه، وجمع الآثار الواردة في الآية، بل حاولت التسهيل والتقريب مع ربط أحوال الناس بالقرآن في كل أحوالهم وفي شؤون حياتهم، وربما بسطت الكلام عن الآية كمعان ظهرت لي لا يجمل إغفالها.

ولك أن تعتبر ما كتبته من التفسير الوعظي الأدبي التربوي الذي يعتمد على الأسلوب الخطابي ليكون صالحاً إن شاء الله للخطيب على المنبر، وللواعظ في محاضراته، وللمعلم في دروسه، ولعل من عنده أدنى معرفة باللغة العربية أو أثارة من علم أن يفهم ما أكتبه ويعي ما أمليه؛ فالمقصود بهذا الكلام جمهور الناس وإنما كانت الشريعة في عمومها للغالب والجمهور وجانبت الغريب والشاذ من الأقول وإيراد الخلاف في تفسير الآية وحشر أقوال المفسرين، وكل هذا مفروغ منه فيما كتبته الأمة من قبل، فنحن بحاجة إلى إلهاب العاطفة، واستثارة الهمة، ومخاطبة الوجدان في زمن غلبت فيه المادة والخلود إلى الأرض، والتهافت على الشهوات، والوقوع في المنهيات، والعزوف عن العلم، والإعراض عن الفقه في الدين، فكان من المهم توجيه الرسائل الخطابية الوعظية التربوية، وقد تكون في ثنايا التفسير أو في غضون شروح الحديث؛ لأن الأسلوب العملي التقريري قد تم والحمد لله وكثرت كتبه وتعددت مصنفاته.

وأسال الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب أن يقبله مني وأن ينفعني به ومن قرأه أو سمعه إن ربي على كل شيء قدير.

عائض القرني

OBEIKAN.COM

OBEIKAN.COM

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾

ليس من مواهبه الشعر ولا من طبيعته، وليس عنده وقت لتهوك الشعراء وولع الأدباء، وليس لديه خيال شارد يقتنص سوارح الأفكار، بل جاء برسالة جليلة ووفد بوحي عظيم، إن محمداً ﷺ ليس شاعراً يضرب الأخماس بالأسداس، ويهيم في أودية الخيال، بل هو نبي معصوم، كل كلمة منه دين، وكل جملة منه سنة؛ لأنه جاء لإصلاح العالم، وليس لدغدغة العواطف وملاعبة المشاعر كما يفعل الشعراء، فليس عنده فراغ في العمر لنظم بنيات الأفكار، ولا لإطراب الجمهور، فهو مرشح لإنقاذ البشرية بإذن الله؛ ومن هذا حاله فالجد منهجه، والحق مقصده، والإصلاح أمنيته: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾.

ولم يكن ﷺ شاعراً؛ لأن الشعر لا ينبني على الحقائق، ولا يقوم على البرهان، فالشعر مزيج من الخيال والهيام والغرام والوله والكذب والزيف، وصان الله رسوله ﷺ من ذلك.

وما ينبغي لمحمد ﷺ أن يقول الشعر، فما جاء لتسلية الناس ولا لمدح الملوك، ووصف الديار والبكاء على الآثار، بل

أتى ـ بنفسي هو ـ لغسل الضمير من أوضار الشرك، وتطهير الروح من دنس الوثنية، وعمارة الكون بالإيمان، فأنفاسه تُعدّ، وثواني عمره تُحسب؛ لأن مهمته لا تحتمل التأخير فهو مبعوث من الخالق إلى الخلق برسالة محمدية عنوانها لا إله إلا الله محمد رسول الله. وإن مزاحمة الرسالة المحمدية الخالدة المعجزة بالفنون الأرضية وبالهوايات العاطفية والتسليات لهو تعطيل لهذه الرسالة عن أداء مهمتها وتفريغ لها من محتواها الجلي العامر.

إن مع محمد ﷺ ما هو أجمل من الشعر، وأبهى من الأدب، وأحسن من الحسن، ألا وهو هذا الكتاب الباهر المعجز الذي أسكت الشعراء، وأفحم الأدباء، وأذهل العلماء، وحير العرب العرباء:

إذا تغلغل فكر المرء في طرف

من حسنه غرقت فيه خواطرُه

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

نحن نقص عليك فدع قصص غيرنا، ولا تلتفت إلى قصص سوانا؛ لأن قصصنا هو الحق الصريح والعلم الصحيح، قصص تسكب في النفس نهراً من النور، وفي الضمير وابلاً من الرشد، قصص ليس كقصص البشر الذي يعتريه ضعف النقل، أو شذوذ الغرابة، أو جموح الخيال، أو مخالفة المعهود، ومناقضة سنة الكون.

ويروى في بعض الآثار أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ وقالوا: لو حدثتنا فأنزل: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ وقالوا: لو وعظتنا، فأنزل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

إن في عالم المعرفة اليوم آلاف القصص بكل لغات البشر، ولكنها عرضة للتحريف والتزييف والزيادة والنقص، ثم إنها ليست قطعية في ثبوتها ولا دقيقة في نقلها مع ما يكتنفها من تهويل وتضخيم وتكلف وافتعال، فبعضها لا حقيقة لها إلا في عقول مصنفيها، وبعضها له أصل ولكنه أضيف إليه أضعافاً

مضاعفة من المبالغة حتى مسخ الأصل وشُوِّه، وبعضها ثابت لكن قُدِّمَ بأسلوب فاتر وعُرِضَ بعرض مشلول.

أما هذه القصة وأمثالها من قصص القرآن فيكفيها سمواً وجلالاً ورفعةً أن الله هو الذي يقصها على عبده المصطفى وحبيبه المجتبى ﷺ.

وفي قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ تنبيه على الاتجاه إلى مصدر المعرفة ومنبع الحقيقة، والمسلم يتلقى علمه وثقافته من هذا الكتاب الجليل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وما أدري كيف يصلح شأن أمة تستورد قصصها من مروجي المكر، وساسة الخداع، وسماسرة الرذيلة، وكيف يهتدي جيلها وهو يطاله زبد تلك الأقلام الكافرة بربها، العاقة لفطرتها، المتنكِّرة لمبادئها؟!

ولن نقص عليك قصصاً فحسب بل أحسن القصص، ويرى بعض أهل العلم أن أحسن القصص هنا هي قصص القرآن كله، فقصصه بالنسبة لعامة القصص أحسن قصص وأوثقها وأجملها وأكملها.

ومن أهل العلم من قال: بل المقصود بأحسن القصص قصة يوسف؛ لأنها المذكورة في السياق المقدم لها بهذا الاحتفال والتنبيه.

وإن قصة يوسف أحسن قصة بالنسبة لما يماثلها في غرضها ومعناها، بل كل قصة في القرآن أحسن وأجل من مثيلاتها في غير القرآن، وقصة يوسف أحسن قصة، لأن فيها من مقاصد الهداية ومعاني الإصلاح وأسرار الفلاح ما يفوق الوصف.

فقصص الناس إما قصة بطولية تهيّج النفس الغضبية على الاعتداء وطلب الثأر وحب الانتقام بلا ضوابط ولا أصول، وإما قصة غرامية تشعل الغريزة وتحرك كوامن الشهوة بلا رادع من تقوى، ولا وازع من عفاف، ولا حجاب من صيانة، وإما قصة غابرة بلا ثقة من ناقل، ولا اطمئنان إلى صدق، ولا مراعاة للحقيقة.

قصة يوسف فيها دروس تربوية ترتقي بالنفس في سلم الفضيلة، وتصعد بالروح في معارج الكمال.

في القصة كيف تكون خاتمة من آمن بالله، وصدق معه، وأخلص له، وصبر على أمره، ودعا إليه، وجاهد في سبيله. وفي القصة نهاية المكر، وعاقبة الكيد المحرم، والحسد المؤذي، وفيها انتظار الفرج وحسن الظن بالله، والفأل الحسن والاستكانة إلى موعوده، والرضا بأمره، والسكون إلى اختياره، والاطمئنان إلى جميل صنعه.

OBEIKAN.COM

وفيها جلال التقوى، وجمال العفة، وحسن مراقبة الله، وإيثار طاعته والانتصار على النفس الأمارة بالهوى الجارف والشباب المجنح.

في قصة يوسف رؤيا تفسر، وأحلام تعبر، وأمثال تضرب، وعظات تطرق ودروس تلقى.

في القصة قميص يُلطَّخ بدم، وقميص يُقَدُ من دبر، وقميص يُلقى على الأعمى فيرتد بصيراً.

في القصة رجل يتهم بامرأة، ورجل يتهم بسرقة، وذئب يتهم بقتل، وفيها طفل يصارع الحياة، وإخوة يغلبهم الحسد، وأب يبرح به حب ابنه، وبئر يلقى فيها غلام، وقافلة تبيع العبيد، وملك يغفل أمور القصر، وامرأة يغلبها هواها، وزنزانة تستقبل داعية، وشيخ كبير يذهب البكاء ببصره، وقافلة تعبر الصحراء لطلب المعاش، وصواع الملك يختفي، ومحاكمة وشهود، ومفاجآت ليست في الحسبان.

كل موقف يختم بحبكة، وكل مشهد ينتهي بقفلة، وكل رحلة فيها عبرة.

في القصة آهات ودموع، وتفجع وشكوى، واتهامات وحقائق، ومكايد ودسائس، وإهباطات وانتصارات، وفيها

وحشة غائب، وفرحة لقاء، وحزن فرقة، وسرور اجتماع، وإسمال فقر، وهالة ملك، ونفس أمارة، ونفس مطمئنة، نبوة وسلطان، حرية ورق، نساء وخدم، حاشية ومستشارون، شباب وشيوخ، بيع وشراء.

قميص من عالم اللباس، وامرأة في دنيا النساء، وذئب وسبع بقرات في أرض الحيوان، وصواع من قسم الأواني.

طفل يفقده أهله، ويكيده إخوانه، ويبكيه أبوه، ثم يباع في سوق الرقيق، ثم يدخل الخدمة في القصر، ثم يعيش النكبة في السجن، ثم ينعم بالملك، ثم يحضى بجمع الشمل وتمام الأمر وكمال الأمنية، ثم يموت.

المشاهد تلاحقك أينما اتجهت، الصور تملأ ناظريك حيثما التفت، يثب قلبك مع كل مشهد، ويقفز مع كل حركة.

OBEIKAN.COM

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾

كل ما سبق توطئة وتمهيد للقصة، وتهيئة لها ولفت انتباه قبل إيرادها وسردها.

وتبدأ القصة الشائقة الماتعة الرائعة بلا حواش ثقيلة وبلا تفاصيل مملّة.

تبدأ ويوسف في عهد الصبا وسن الطفولة، يستفيق ذات يوم من نومه وقد رأى رؤيا عجيبة ليقصها على أبيه النبي يعقوب عليه السلام.

رأى يوسف أن أحد عشر نجماً مع الشمس والقمر يسجدون له. وعرف يعقوب التأويل؛ لأن نور النبوة في قلبه، ولم يشرح ليوسف الرؤيا لمصلحة رءاها، بل وجد أن الأهم من ذلك وصيته له بكتمها وعدم إفشائها وترك نشرها على إخوته؛ لأنها سوف تثير عليه حسداً دفيناً وعداوة متربصة وانتقاماً مؤذياً.

وفي الآية لطف الأب مع ابنه وحنانه عليه، وتوجيهه إلى ما ينفعه، وتحذيره عما يسوءه، ونجابة يوسف وذكائه مع

صغره، وعرض الرؤيا على العالم إذا كانت من المبشرات، وترك تفسير الرؤيا إذا كان في ذلك مصلحة، وكتم السر إذا حصل بإفشائه ضرر وعليه الأثر: «**استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود**»، والحذر من الأقران، وستر النعم إذا خشي من إظهارها عدوان عليها، وأن الشمس والقمر والنجوم في المنام عظماء أو علماء أو زعماء، وفيه أن تفسير الرؤيا قد تتأخر سنوات عديدة وأزماناً مديدة ثم تقع بإذن الله.

وإنما قال رأيتهم لي ساجدين، بالجمع للعقلاء، ولم يقل ساجدات؛ لأنه لما نسب إليها السجود وهو وصف لمن يعقل ألحقها بالعقلاء، وهذه رؤيا ليست عادية، بل تنبئ عن مستقبل زاهر ليوسف، وسوف يكون له مع التاريخ صولة ومع الدهر دولة، ومع الأيام جولة، سوف يصل إلى تحقيق هذه الرؤيا لكن عبر طريق ملؤه الشوك والضنى والمشقة والبلوى والدموع والشكوى والفراق والفجيعة والمكر والكيد والحبس والقيد والأذى والتشويه والامتحان والصبر، ولكن كما قال أبو الطيب:

جزى الله المسير إليك خيراً

وإن ترك المطايا كالمزادِ

سوف تقع هذه الرؤيا كفلق الصبح، ولكنها لن تقدم بين عشية وضحاها على طبق من ذهب، لأن المنازل العالية والمراتب الجليلة لا يوصل إليها إلا بجهود شاقة وتكاليف باهظة وتضحيات هائلة؛ لأن السنة اقتضت ذلك والحكمة نصت على ذلك ليكون العطاء لذيذاً، والهبة غالية، والثمن ضخماً راقياً.

لا يدرك المجد إلا سيد فطنٌ

بما يشق على السادات فعالُ

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر والإقدام قتالُ

وفي الوحي المقدس: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ لا والله لايصل واصل إلى الولاية الكبرى والسعادة العظمى والعبودية الحقة إلا بجهد مبذول، وعرق مسفوح، ودم مسفوك، وعرض يمزقه الحسد، وسمعة يشوهها الجناة، وقلب يبلغ الحنجرة من التهديد والوعيد، وكبد حرى تشوى

على جمر الانتظار، وقلب مفجوع بويلات المواقف، وأهوال تشيب لها رؤوس الولدان، حتى يختطف النصر بجدارة، ويؤخذ الكتاب بقوة، وينال المجد بتضحية، وتقطف الثمرة باستحقاق، وتعطى الجائزة بتأهل، فآدم يأكل الشجرة ويهبط ويندم ويتوب وينكسر ثم يجتبى ويعلو ويكرم، ونوح ينوح من عقوق الابن، وشقاق المرأة، ومحاربة قومه، وموسى يتجرع الغصص، ويقف تلك المواقف التي يهتز لها الكيان ويرتجف من هولها الجنان مع تهم وإيذاء، وصد ومنازلة، وحروب وإعراض وإرجاف.

وإبراهيم يعيش حياته جهاداً في سبيل الله مع تكذيب والده، والأمر بذبح ابنه، وإعراض قومه، ووضعه في النار وملابسة الشدائد، والمرور بالنكبات والمصائب.

وعيسى يذوق طعم الافتراء المر، والأذى المتعمد، والفقر المضني.

ثم تختم قائمة الأنبياء وصحيفة الرسل بمحمد ﷺ، فتجمع له هذه النكايات جميعاً، ليكون أعلى الكل كعباً، وأثبتهم قدماً، وأسعدهم حظاً، فيموت أبوه وهو حمل، ثم يتبعه جده وهو طفل، ثم يلحقه عمه في زمن الضعف، ثم تتلوه خديجة زمن النصر، ثم يطرد من مكة طرداً، ويشرد تشريداً

مع الضرب بالحجارة، ووضع السلى على الرأس، مع قاموس من الشتائم بوصفه بالجنون والسحر والشعر والكذب والكهانة والافتراء والعقوق، والإخراج من الوطن، وقتل الأصحاب، وموت الأبناء، وقذف الزوجة، ومصاولة اليهود، وتكذيب النصارى، ومحاربة المشركين، وتربص المنافقين، وصلف الأعراب، وتيه الملوك، وبطر الأغنياء، مع مراراة الفقر، وجدب المعيشة، وعوز الحاجة، وحرارة الجوع، ومعاناة قلة ذات اليد، فالمرض عليه يضاعف، فهو يوعك كما يوعك رجلان منا، شج وجهه وكسرت ثنيته وجرح في جسمه، ثم كان الله معه في كل ذلك فضاز بالزلفى ونال حسنى العقبى، بل وصل أشرف المقامات وأجل الرتب.

ويوسف هنا تبدأ معاناته من هذه الرؤيا، ويستقبل رحلة طويلة، وسفراً قاصداً بهذه الرؤيا، لتتحول الأحلام إلى حقائق في حياته، وتصبح الرؤيا قضايا مصيرية في مستقبله.

ونواصل مع يوسف سجل حياته، ودفتر عمره وذكرياته؛ لنرى ماذا سوف يقع، وما هي النهاية.

OBEIKAN.COM

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

هذا عقد بين المسلم وربه، وميثاق بين العبد ومولاه، أن يصرف العبد كل عبادته الله ـ عز وجل ـ ولا يشرك معه غيره، وأن لا يستعين إلا بربه جلّ في علاه، فمن العبد العبادة والمسألة والطلب، ومن الله العون والتأييد، وهذه الآية كما قال الله ـ عزّ وجل ـ في الحديث القدسي: «**هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل**» وهي ملخص دعوة الأنبياء وموجز رسالة الرسل عليهم السلام.

ومعاني القرآن مجموعة في هذه الآية، فالله أوجب حقه على الخلق، وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وأوجب على نفسه لهم حقاً إذا فعلوا ذلك وهو أن لا يعذبهم.

والعبادة التي يريدها الله من الخلق هي: فعل كل ما أوجبه الله ورسوله ﷺ من الأقوال والأفعال الظاهرة والخفية، واجتناب ما نهى الله عنه ورسوله ﷺ من ذلك، والاستعانة: طلب العون من الله في كل أمر لا يستطيع عليه المخلوق ولا يقدر عليه إلا الخالق، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لابن عباس: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**».

OBEIKAN.COM

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وثيقة مقدسة يعلنها المسلم في كل ركعة من صلاته فريضة كانت أو نافلة ليذكر نفسه دائماً بهذا العهد العظيم، الذي من أجله خُلق الإنسان، ومن أجله أُرسلت الرسل ونُزِّلت الكتب، وقام سوق الجنة وسوق النار، ومُدَّ الصراط، ونصب الميزان، وبعث الخلق من قبورهم، وحصل ما في صدورهم، وعرضت عليهم صحفهم، وأقيم عليهم شاهد من أنفسهم.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هي قضية الخلاف بين المسلمين والمشركين، وهي من معاني لا إله إلا الله، ومن أجلها وقع القتال بين أولياء الله وأعدائه، وحصلت الحروب بين حزب الله وحزب الشيطان، فما بعث الرسل عليهم السلام إلا من أجل أن يعبد الله وحده لا شريك له، وما سالت دماء الشهداء إلا ليوحد الله ويُفرد بالعبادة ويختص بالتوجه دونما سواه جلّ في علاه.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ سعادة أبدية ونجاة سرمدية بها يتم الصلاح وينال الفلاح وتسهل الأمور وتدفع الشرور، ولا ينال رضى الله ورحمته وعفوه ومغفرته وعونه وهدايته وتسديده إلا بإياك نعبد وإياك نستعين، ولا تحصل النعم ولا

تدفع النقم ولا يحصن من المتالف ويسلم من الصوارف ويحفظ من الكوارث والفتن والمحن إلا بإياك نعبد وإياك نستعين، وهي عاصمة لمن قام بحقوقها من الزلل والتخبط العقدي والهوج الفكري والضلال العملي والسفه الأخلاقي والانحطاط السلوكي والشطط العلمي؛ لأن في إياك نعبد وإياك نستعين عناية ربانية، ورعاية إلهية، وولاية إيمانية، وبركة القرآن.

وهي أعظم فتح يُفتح به على الإنسان، فيكرم ويجتبى من عالم الطين، ويصطفى من دنيا الانحلال والتمزق والاضطراب والضياع والانحراف والذل والخنوع والخيبة، فيرتقي هذا الإنسان بإياك نعبد وإياك نستعين مكرماً في معارج القبول عند ربه، وفي سلم الوصول إلى مولاه، وفي درجات الفوز إلى خالقه، وهذا أعظم مجد وأجلّ رفعة وأحسن منزلة وأشرف رتبة، ويهون معها المجد الدنيوي المؤقت المنقطع الزائل الفاني من منصب أو جاه أو مال أو ولد أو شهرة، فيصبح المسلم بهذه الكلمة عزيز الجانب، قوي الركن، عامر القلب، مطمئن النفس، منشرح الصدر، منبلج الخاطر، نير البصيرة؛ لأنه اتصل بالله، ودخل في نسب العبودية، ولبس تاج الخدمة للأحد الصمد، وحمل راية الولاية، وتشرف بالانضواء تحت علم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ صلة بين الأرض والسماء، وبين الضعف والقوة، والفقر والغنى، والبقاء والفناء، وصلة بين العبد الضعيف الفاني وبين الله القوي الغني الحي القيوم، فيها يحرر الإنسان من الرق للطاغوت، والعبودية للوثن، والاستسلام للشهوات، والوقوع في براثن الغواية، والسقوط في مهالك الردى، وبها يغسل الإنسان من رجس الشرك ونجاسة الجاهلية، وخبث الكفر وأدران الفسق، وأوساخ المعصية، وبها يُطهر ضمير العبد من الخواء، وقلبه من النفاق، وعمله من الرياء، ولسانه من الكذب، وعينه من الخيانة، ونفسه من الظلم، فيصبح بإياك نعبد وإياك نستعين عبداً لله مخلصاً مبرأ من الشرك نقياً من الوثنية، معصوماً من نزغات الشيطان محفوظاً من فتنة الشهوات والشبهات.

OBEIKAN.COM

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

إن العبد أحوج ما يكون لطلب الهداية من ربه؛ لأن العبد وحده لا يستطيع أن يهتدي ولا يملك مفتاح الهداية ولا يعرف طريقها ولا يجيد هذا ولا يميز بين الحق والباطل والرشد والغي ما لم يهده ربه سواء السبيل، فالذي يملك الهداية هو الله وحده لا هادي لمن أضل ولا مضل لمن هدى، وهو يهدي من يشاء رحمة وكرماً، ويضل من يشاء قضاء مبرماً سبق علمه أنه لا يهتدي، فوجب على العبد أن يلهج بهذا الدعاء في كل ركعة من صلاته لتصبح المسألة حية في ضميره، سارية في دمه، ماثلة نصب عينيه، ليتذكر دائماً نعمة الهداية إلى صراط الله المستقيم، وهي أجلّ نعمة تسدى للعبد، وأعظم مكرمة تمنح لهذا المخلوق، والهداية معرفة الحق الذي بعث به محمد ﷺ، والعمل به والموت عليه والبذل لأجله والتضحية في سبيله والجهاد لدوام هذا الحق وخلوده وانتصاره وعلوه وعزته.

والصراط المستقيم هو طريق الله الواضح المبين الموصل إلى رضوانه وطاعته ومغفرته وجنته، وهو طريق بيّنه الله ودل عليه الرسل، وشهدت باستقامته الكتب، ووافقت على السير فيه الفطرة، ومضى عليه موكب الأولياء، وضوعت به دماء

الشهداء، وهو طريق واحد لا ثاني له، فريد لا مثيل له، متميز لا شبيه له، وهو مستقيم أقرب موصل إلى الفوز والفلاح والنجاة، وأسهل معبر إلى الأمن والسكينة والاطمئنان، وأيسر جسر إلى الرضوان والتوفيق، كل المسالك سواه مضطربة، كل الطرق ما عداه معوجة، كل السبل غيره ملتوية، وهذا الصراط المستقيم لا يهدي إليه إلا الله، ولا يدل عليه إلا الرسل وأتباعهم، ولا يسلكه إلا من سبقت له الحسنى، ولا يحيد عنه إلا من حقت عليه الغواية، وكتبت عليه اللعنة، وحاقت به الخطيئة، وأوبقه شيطانه ونفسه وهواه.

وهذا الصراط المستقيم مجمل ومفصل، أما مجمله فهداية عامة لكل من سار على هذا الصراط ومضى في هذا الطريق يريد النجاة من غضب الله والفوز برضوانه، ومفصل هذا الصراط استقامة لا التفات فيها، وقيام بتفاصيل الدين وشعائر الملة، وبذل النفس والنفيس لإعلاء كلمة الله، وصرف العمر كله في العبودية، وإنفاق ساعات الزمن وأنفاس الوقت في مراسيم الطاعة صلاة وصياماً وزكاة وحجاً وجهاداً وإنابة ومحبة وخشية وتوبة ورهبة ورغبة، مع المحافظة على سنن المعصوم، والتحلي بأخلاق القدوة الحسنة والتأسي بصفات الإمام الأعظم ﷺ.

OBEIKAN.COM

وهذا الصراط المستقيم محطاته ومعالمه ومنازله موصوفة في كتاب الله العظيم وسنة النبي الكريم، بل إن الرسالة كلها والشريعة أجمعها شرح لهذا الصراط المستقيم، والوحي أوله وآخره توضيح وبسط لهذا الصراط المستقيم، والله جلّ في علاه على صراط مستقيم، والرسول النبي الأمي يهدي إلى صراط مستقيم، والقرآن الكتاب المعجزة يهدي إلى الصراط المستقيم.

فجملة اهدنا الصراط المستقيم كلية من كليات الشريعة، وقاعدة من قواعد الإيمان، وأصل من أصول الدين، ولهذه الآية وأخواتها عظم قدر سورة الفاتحة، فكانت من السبع المثاني، والشافية والكافية وأم القرآن، وافتتح بها المصحف، وفرضت في الصلاة، وجمعت فيها الملة، وشفت بإذن الله من الأمراض.

فكم من لديغ للشيطان ذاق ترياقها فتعافى، وكم من جريح من أسهم الغواية عبّ من تميزها فتشافى، اللهم اهدنا صراطك المستقيم حتى نعبره إليك لنلقاك وأنت راض عنا، محسن إلينا، لطيف بنا، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾

هجوم أدبيٌّ كاسح، وتهديد رباني ماحق ساحق، لأعداء محمد ﷺ وخصومه ومبغضيه، وهذا ذب عن شخصه الكريم، ودفاع عن مقامه العظيم، فإذا كان المدافع الحامي والناصر هو الله فلتقر عينه ﷺ بهذا النصر والدفاع والولاية، وشانئه ﷺ لا يكون إلا كافراً مارداً حقيراً خسيساً؛ لأنه ما أبغضه إلا بعد ما أصابه بخذلان، وكتب عليه الخسران، وأراد له الهوان، وإلا فإنسان مثل الرسول ﷺ يوجب النقل والعقل حبّه، إذ لو كان الطهر جسداً كان جسده ﷺ، ولو كان النبل والسمو صورة لكان صورته بأبي هو وأمي، فهو منتهى الفضيلة، وغاية الخصال الجميلة، والمستحق للوسيلة، وصاحب الدرجة العالية الرفيعة الجليلة، فكان الواجب على من عنده ذرة رأي، وبصيص من نور، إذا كان يحترم عقله أن يحب هذا الإمام العظيم لما جمع الله فيه من الفضائل، ولما حازه من مناقب، ولكن واحسرتاه على تلك العقول العفنة، والنفوس المتدثرة بجلباب الخزي، القابعة في سراديب البغي، الراتعة في مهاوي الرذيلة، كيف عادته مع كماله البشري، ومقامه السامي، فكأنه المقصود بقول الشاعر:

أعادي على ما يُوجب الحب للفتى

وأهـدأ والأفكـار فـيّ تجـــــول

وقول الآخر:

إذا محاسني اللاّتي أدلُّ بها

كانت ذنوبي فقل لي كيف أعتذرُ

OBEIKAN.COM

﴿هُوَ الأَبْتَرُ﴾

أي مقطوع البركة والنفع والأثر، فكل من عاداك لا خير فيه ولا منفعة من وراءه، أما أنت فأنت المبارك أينما كنت، اليُمن معك، السعادة موكبك، الرضا راحلتك، البركة تحّفك، السكينة تغشاك، الرحمة تتنزل عليك، الهدى حيثما كنت، النور أينما يممت، وأعداؤه ﷺ قالوا: إنه أبتر لا نسل له ولا ولد، فجاء الجواب مرغماً لتلك الأنوف، واضعًا لتلك الرؤوس، محبطاً لتلك النفوس، فكأنه يقول لهم: كيف يكون أبتر وقد أصلح الله على يديه الأمم، وهدى بنوره الشعوب، وأخرج برسالته الناس من الظلمات إلى النور؟

كيف يكون أبتر والعالم أشرق على أنواره، والكون استيقظ على دعوته، والدنيا استبشرت بقدومه؟

كيف يكون أبتر والمساجد تردد بالوحي الذي جاء به، والحديث الذي تكلم به، والمآذن تعلن مبادئه، والمنابر تذيع تعاليمه، والجامعات تدرس وثيقته الربانية؟

كيف يكون أبتر والخلفاء الراشدون نهلوا من علمه، والشهداء اقتبسوا من شجاعته، والعلماء شربوا من معين نبوته، والأولياء استضاؤا بنور ولايته؟

كيف يكون أبتر وقد طبق ميراثه المعمورة، وهزت دعوته الأرض، ودخلت كلمته كل بيت، فذكره مرفوع، وفضله غير مدفوع، ووزره موضوع.

كيف يكون أبتر وكلما قرأ قارئ كتاب الله فلمحمد ﷺ مثل أجره؛ لأنه هو الذي دل على الخير، وكلما صلى مصل فله مثل أجر صلاته؛ لأنه هو الذي علمنا الصلاة: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**» وكلما حج حاج فله ﷺ مثل حجه؛ لأنه عرفنا تلك المناسك: «**خذو عني مناسككم**».

بل الأبتر الذي عاداه وحاربه وهجر سنته وأعرض عن هداه.

فهذا الذي قطع الله من الأرض بركته، وعطل نفعه، وأطفأ نوره، وطبع على قلبه، وشتت شمله، وهتك ستره، فكلامه لغو من القول، وزور من الحديث، وعمله رجس مردود عليه، وأثره فاسد، وسعيه في تباب.

وانظر لكل من ناصب هذا الرسول الأكرم ﷺ العداء، أو أعرض عن شرعه أو شيء مما بعث به كيف يصيبه من الخذلان والمقت والسخط والهوان بقدر إعراضه ومحاربته وعدائه.

فالملحد مقلوب الإرادة، مطموس البصيرة، مخذول تائه منبوذ، والمبتدع زائغ ضال منحرف، والفاسق مظلم القلب في حجب المعصية، وفي أقبية الانحراف.

ولك أن ترى سموه ﷺ وعلو قدره ومن تبعه يوم ترى الناس وحملة حديثه وآثاره، وهم في مجد خالد من الأثر الطيب، والذكر الحسن، والثناء العاطر من حسن المصير، وجميل المنقلب، وطيب الإقامة في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ثم انظر للفلاسفة المعرضين عن السنة مع ما هم فيه من الشبه والقلق والحيرة والاضطراب والندم والأسف على تصرم العمر في الضياع وذهاب الزمن في اللغو وشتات القلب في أودية الأوهام.

فهذا الإمام المعصوم ﷺ معه النجاة، وسنته سفينة نوح من ركب فيها نجا، ومن تخلف عنها هلك، وهو الذي يدور معه الحق حيثما دار، وكلامه حجة على كل متكلم من البشر من بعده، وليس لأحد من الناس حجة على كلامه، وكلنا راد ومردود عليه إلا هو ﷺ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، زكّى الله سمعه وبصره وقلبه، ونفى عنه الضلال وحصّنه من الغي، وسلّمه من الهوى، وحماه من الزيغ، وصانه من الانحراف، وعصمه من الفتنة، فكل قلب لم يبصر نوره فهو

قلب مغضوب عليه، وكل أرض لم تشرق عليها شمسه فهي أرض مشؤومة، وكل نفس لم ترحب بهداه فهي نفس ملعونة، فهو المعصوم من الخطأ، المبرأ من العيب، السليم من الحيف، النقي من الدنس، المنزه عن موارد التهم. على قوله توزن الأقوال، وعلى فعله تقاس الأفعال، وعلى حاله تعرض الأحوال.

وقد قصد الكفار بقولهم: إنه أبتر ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه لا ولد له، فإذا مات انقطع عقبه، والأبتر عند العرب هو من لا نسل له ولا عقب، فردَّ الله عليهم وأخبر أن من عاداه هو الأبتر حقيقة.

وفي هذه السورة ثلاث آيات: فالأولى عن الله عز وجل وعطائه لرسول ﷺ، والثانية للرسول ﷺ، والواجب عليه في مقابلة هذا العطاء وهي الصلاة والنحر، والثالثة لأعدائه ﷺ وهو البتر والقطع من الخير والبركة والنفع.

فالأولى عطية له، والثانية واجب عليه، والثالثة دفاع عنه.

وفي السورة تكريم الله لرسوله ﷺ، وإثبات الكوثر له كما صحت به الأحاديث أيضاً، والدفاع عنه وجواز سب الكافر وشتمه وزجره ليرتدع.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴾

حسبك الله يكفيك من كل ما أهمك فيحفظك في الأزمات، ويرعاك في الملمات، ويحميك في المدلهمات، فلا تخش ولا تخف ولا تحزن ولا تقلق. فمن تخاف ونحن معك، ومن تخشى ولدينا نصرك، ومن ترهب وعندنا عزك فيكفيك: أن حسبك الله.

حسبك الله فهو ناصرك على كل عدو، ومظهرك على كل خصم، ومؤيدك في كل أمر، يعطيك إذا سألت، ويغفر لك إذا استغفرت، ويزيدك إذا شكرت، ويذكرك إذا ذكرت، وينصرك إذا حاربت، ويوفقك إذا حكمت.

حسبك الله فيمنحك العز بلا عشيرة، والغنى بلا مال، والحفظ بلا حرس، فأنت المظفر لأن الله حسبك، وأنت المنصور لأن الله حسبك، وأنت الموفق لأن الله حسبك، فلا تخف من عين حاسد ولا من كيد كائد، ولا من مكر ماكر، ولا من خبث كافر، ولا من حيلة فاجر؛ لأن الله حسبك إذا سمعت صولة الباطل، ودعاية الشر، وجلبة الخصوم، ووعيد اليهود، وتربص المنافقين، وشماتة الحاسدين، فاثبت لأن حسبك الله، إذا ولى الزمان، وجفا الإخوان، وأعرض القريب، وشمت العدو، وضعفت النفس، وأبطأ الفرج، فاثبت لأن حسبك الله،

إذا داهمتك المصائب، ونازلتك الخطوب، وحفت بك المكاره، وأحاطت بك الكوارث فاثبت لأن حسبك الله، لا تلتفت إلى أحد من الناس، ولا تدعو أحدًا من البشر، ولا تتجه لكائن من كان غير الله؛ لأن حسبك الله.

إذا ألم بك مرض، وأرهقك دين، أو حل بك فقر، أو عرضت لك حاجة فلا تحزن؛ لأن حسبك الله.

إذا أبطأ النصر، وتأخر الفتح، واشتد الكرب، وثقل الحمل، وادلهم الخطب فلا تحزن؛ لأن حسبك الله، أنت محفوظ لأنك بأعيننا، وأنت محروس؛ لأنك خليلنا، وأنت في رعايتنا؛ لأنك رسولنا، وأنت في حمايتنا؛ لأنك عبدنا المجتبى ونبينا المصطفى.

حسبك الله يا محمد، فهو الذي شرح صدرك، ووضع وزرك، ورفع ذكرك، وأصلح أمرك، وأعلى قدرك، أغناك من الفقر، وهداك من الضلالة، أمّنك من الخوف، أعزك بعد الذلة، أيدك بعد الضعف.

حسبك الله يا محمد، فهو الذي حفظك في الغار، ونصرك في بدر، وثبتك في أحد، وفتح لك مكة، وأعزك في كل موطن، وأعانك في كل موقف.

﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾

هذه الكلمة الجميلة الشجاعة قالها ﷺ وهو في الغار مع صاحبه أبي بكر الصديق وقد أحاط بهم الكفار قالها قوية في حزم، صادقة في عزم، صارمة في جزم: لا تحزن إن الله معنا، فما دام الله معنا فلم الحزن، ولم الخوف ولم القلق؟ اسكن، اثبت، اهدأ، اطمئن؛ لأن الله معنا.

لا نغلب، لا نهزم، لا نضل، لا نضيع، لا نيأس، لا نقنط؛ لأن الله معنا، النصر حليفنا، الفرج رفيقنا، الفتح صاحبنا، الفوز غايتنا، الفلاح نهايتنا؛ لأن الله معنا.

لو وقفت الدنيا كل الدنيا في وجوهنا، لو حاربنا البشر كل البشر، ونازلنا كل من على وجه الأرض فلا تحزن لأن الله معنا.

من أقوى منا قلباً، من أهدى منا نهجاً، من أجل منا مبدأ، من أحسن منا مسيرة، من أرفع منا قدراً، لأن الله معنا.

ما أضعف عدونا، ما أذل خصمنا، ما أحقر من حاربنا، ما أجبن من قاتلنا لأن الله معنا.

OBEIKAN.COM

لن نقصد بشراً، لن نلتجئ إلى عبد، لن ندعو إنساناً، لن نخاف مخلوقاً لأن الله معنا.

نحن أقوى عدة، وأمضى سلاحاً، وأثبت جناباً، وأقوم نهجاً؛ لأن الله معنا.

نحن الأكثرون الأكرمون الأعلون الأعزون المنصورون؛ لأن الله معنا.

يا أبا بكر، اهجر همَّك، وأرح غمك، واطرد حزنك، وأزل يأسك؛ لأن الله معنا.

يا أبا بكر، ارفع رأسك، وهدئ من روعك، وأرح قلبك، لأن الله معنا.

يا أبا بكر، أبشر بالفوز، وانتظر النصر، وترقب الفتح؛ لأن الله معنا.

غداً سوف تعلو رسالتنا، وتظهر دعوتنا، وتسمع كلمتنا؛ لأن الله معنا.

غداً سوف نسمع أهل الأرض روعة الأذان، وكلام الرحمن، ونغمة القرآن؛ لأن الله معنا.

غداً سوف نخرج الإنسانية، ونحرر البشرية من عبودية الوثنية؛ لأن الله معنا.

OBEIKAN.COM

هذه الكلمات قالها رسولنا ﷺ لأبي بكر الصديق وهما في الغار وقد أحاط بهما الكفار من كل ناحية، وطوقهم الموت من كل مكان، وأغلقت الأبواب إلا باب واحد، وقطعت الحبال إلا حبل واحد، وعز الصديق والقريب، وغاب الصحاب والحبيب، وعجزت الأسرة والقبيلة، وبقي الواحد الأحد الفرد الصمد، حينها قال عليه الصلاة والسلام: ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾.

لا تحزن إن الله معنا، إذاً معنا الركن الذي لا يضام، والقوة التي لا ترام، والعزة التي لا تغلب، ما دام الله معنا فممن تخاف وممن تخشى وممن ترهب؟ فهو القوي العزيز، وهم الضعفاء الأذلاء، ما دام الله معنا فلا تأسف على قلة من عدد، أو عوز من عتاد، أو فقر من مال، أو تخاذل من أنصار، إن الله معنا وكفى، معنا بحفظه ورعايته، بقوته وجبروته، بكفايته وعنايته، بدفاعه وبطشه، فلا تحزن إذا تلاها الخادم يهدد الناس بقوة سيده من ملوك الأرض فيخافون ويذعنون، فكيف برب الناس ملك الناس إله الناس، إن أعظم كلمة في الخطب وأشرف جملة في الكرب هي هذه الكلمة الصادقة الساطعة: لا تحزن إن الله معنا.

وسر هذه الكلمة في مدلولها وعظمتها في معناها يوم تذكر معية الله ـ عز وجل ـ وهو الذي بيده مقاليد الحكم،

ورقاب العباد، ومقادير الخلق، وأرزاق الكائنات، وهذه الكلمة في زمنها الذي قيلت فيه وفي جوها المخيف المرعب وفي مكانها المزلزل المذهل لها طعم آخر وقصة أخرى، لقد جاءت في لحظة طوق فيها على المعصوم وصاحبه في الغار، وأغلق الباب وأحاط الأعداء بكل جانب، وسلوا سيوف الموت، يريدون أشرف مهجة خلقت، وأزكى نفس وجدت، وأطهر روح خلقت، فما الحيلة؟

الحيلة رفع ملف القضية وأوراق الفاجعة وسجل الكارثة إلى من على العرش استوى، ليقضي فيها بما يشاء، ولكن صاحب الرسالة ذا القلب المشرق الفياض أرسل لصاحبه أبي بكر رسالة رقيقة هادئة باسمة حانية نصها: لا تحزن إن الله معنا، فصار الحزن سروراً، والهم فرحاً، والغم راحة، والكرب فرجاً، والهزيمة نصراً عزيزاً.

ظنواْ الحمام وظنوا العنكبوت على

خير البرية لم تنسج ولم تحمِ

عناية الله أغنت من مضاعفة

من الدروع وعن عال من الأطمِ

وكلمة ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾، يحتاجها المسلم كل آن: فإذا تكاثف همك وكثر غمك وتضاعف حزنك فقل لقلبك:﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾، وإذا ركبك الدين، وأضناك الفقر، وشواك العدم، فقل لقلبك: ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾، وإذا هزتك الأزمات، وطوقتك الحوادث، وحلت بك الكربات، فقل لقلبك: إن الله معنا.

OBEIKAN.COM

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

والله إنك لعظيم الأخلاق، كريم السجايا، مهذب الطباع، نقي الفطرة، طيب الخصال، عظيم الخلال.

والله إنك جم الحياء، حي العاطفة، جميل السيرة، طاهر السريرة، نقي الضمير، عفيف الجيب، سليم الصدر.

والله إنك قمة الفضائل، ومنبع الجود، ومطلع الخير، وغاية الإحسان، ونهاية ما يصبو إليه الإنسان، وذروة ما تتوق إليه الأنفس وتطمح إليه الأرواح.

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ يظلمونك فتصبر، يؤذونك فتغفر، يشتمونك فتحلم، يسبونك فتعفو، يجفونك فتصفح، تعطي من منعك، تصل من قطعك، تعفو عمن ظلمك.

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.. يحبك الملك والمملوك، والصغير والكبير، والرجل والمرأة، والغني والفقير، والقريب والبعيد؛ لأنك ملكت القلوب بعطفك، وأسرت الأرواح بفضلك، وطوقت الأعناق بكرمك، وسبيت الأنفس بجودك، وكسبت الناس بلطفك.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ هذبك الوحي، وعلمك جبريل، وهداك ربك، وصاحبتك العناية، ورافقتك الرعاية، وحالفك التوفيق.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ البسمة على محياك، البشر على طلعتك، النور على جبينك، الحب في قلبك، الجود في يدك، البركة فيك، والفوز معك.

من زار بابك لم تبرح جوارحه

تروي أحاديث ما أوليت من مننِ

فالعين عن قرة والكف عن صلة

والقلب عن جابر والسمع عن حسنِ

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ لا تكذب ولو أن السيف على رأسك، ولا تخون ولو حزت الدنيا، ولا تغدر ولو أعطيت الملك؛ لأنك نبي معصوم، وإمام قدوة، وإسوة حسنة.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ صادق ولو قابلتك المنايا، شجاع ولو قاتلتك الأسود، جواد ولو سُئلت كل ما تملك، فأنت المثال الراقي والرمز السامي، وأنت الصفوة المجتبى، والنبي المختار، والرسول المصطفى.

OBEIKAN.COM

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ سبقت العالم ديانة وأمانة وصيانة ورزانة، وتفوقت على الكل علماً وحلماً وكرماً ونبلاً وشجاعة وتضحية، وعلوت على الجميع صبراً وثباتاً وعلماً وعملاً وصلاحاً واستقامة.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ الطهر أنت، والصدق ما تقوله، والحق ما تدعو إليه، والعدل ما تحكم به، والهدى ما أنت عليه، لو كان الصلاح رجلاً لكان في ثيابك، ولو كان البر إنساناً لكان في هيكلك، ولو أن الفضيلة بشر لحل فيك.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ آذوك ـ بأبي أنت ـ وشتموك ـ فديتك ـ وأخرجوك وقاتلوك وكذبوك ـ بنفسي أنت ـ ثم ناديت: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، جرحوك وأدموا عقبيك، وشجّوا رأسك، وكسروا ثنيتك، وقتلوا أصحابك، ثم قلت: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

إن كنتُ أحببت بعد الله مثلك في

بدو وحضر ومن عرب ومن عجم

فلا اشتفى ناظري من منظر حسن

ولا تفوّه بالقول السديد فمي

﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾

لست مجنوناً كما قال أعداؤك، لكن عندك دواء المجانين، فالمجنون الطائش السفيه التافه من خالفك وعصاك وحاربك وجفاك، والمخذول الأحمق من عصاك، والتائه المأفون من نادَّك، والمغبون الخاسر من اختار سبيلاً غير سبيلك.

﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ وكيف يكون ذلك وأنت أكملهم عقلاً، وأتمهم رشداً، وأسدهم رأياً، وأعظمهم حكمة، وأجلهم بصيرة.

وكيف تكون مجنوناً وقد أتيت بوحي يكشف الزيغ، ويزيل الضلال، وينسف الباطل، ويمحو الجهل، ويهدي العقل، وينير الطريق.

لست مجنوناً لأنك على هدى من الله، وعلى نور من ربك، وعلى ثقة من منهجك، وعلى بينة من دينك. وعلى رشد من دعوتك، صانك الله من الجنون، بل عندك كل العقل، وأكمل الرشد، وأتم الرأي، وأحسن البصيرة، فأنت الذي يهتدي بك العقلاء، ويستضيء بحكمتك الحكماء، ويقتدي بك الراشدون المهديون.

إذا نحن أولجنا وأنت إمامنا

كفى بالمطايا طيب ذكراك هاديا

كذب وافترى من وصفك بالجنون وقد ملأت الأرض حكمة، والدنيا رشداً، والعالم عدلاً، فأين يوجد الرشد إلا عندك، وأين تكون الحكمة إلا لديك، وأين تحل البركة إلا معك.

أنت أعقل العقلاء، وأفضل النبلاء، وأجل الحكماء، كيف يكون محمد مجنوناً وقد قدم للبشرية أحسن تراث على وجه الأرض، وأهدى للعالم أجل تركة عرفها الناس، وأعطى الكون أبرك رسالة عرفها العقلاء.

أخوك عيسى دعا ميتا فقام له

وأنت أحييت أجيالاً من الرمم

OBEIKAN.COM

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

أنت يا محمد مهنتك الهداية، ووظيفتك الدلالة، وعملك الإصلاح، أنت تهدي إلى صراط مستقيم؛ لأنك تزيل الشبهات، وتطرد الغواية، وتذهب الضلالة، وتمحو الباطل، وتشيد الحق، والعدل والخير.

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، فمن أراد السعادة فليتبعك، ومن أحب الفلاح فليقتد بك، ومن رغب في النجاة فليهتد بهداك.

أحسن صلاة صلاتك، وأتم صيام صيامك، وأكمل حج حجك، وأزكى صدقة صدقتك، وأعظم ذكر ذكرك لربك.

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ من ركب سفينة هدايتك نجا، من دخل دار دعوتك أمن، من تمسك بحبل رسالتك سلم، فمن تبعك ما ذل وما ضل وما قل، وكيف يذل والعز معك، وكيف يضل وكل الهداية لديك، وكيف يزل والرشد كله عندك، وكيف يقل والله مؤيدك وناصرك وحافظك.

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لأنك وافقت الفطرة، وجئت بحنيفية سمحة، وشريعة غراء، وملة كاملة، ودين تام.

هديت العقل من الزيغ، وطهرت القلب من الريبة، وغسلت الضمير من الخيانة، وأخرجت الأمة من الظلام، وحررت البشر من الطاغوت.

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فكلامك هدى، وحالك وفعلك هدى، ومذهبك هدى، فأنت الهادي إلى الله على طريق الخير لكل البشر، الداعي إلى الجنة.

OBEIKAN.COM

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾

أدّ الرسالة كاملة كما سمعتها كاملة، بلغها تامة مثلما حملتها تامة، لا تنقص منها حرفاً، ولا تحذف كلمة، ولا تغفل جملة.

بلغ ما أنزل إليك فهي أمانة في عنقك سوف تسأل عنها، فبلغها بنصها وروحها ومضمونها.

بلغ ما أنزل إليك من الوحي العظيم، والهدى المستقيم، والشريعة المطهرة، فأنت مبلغ فحسب؛ لا تزد في الرسالة حرفاً، لا تضف من عندك على المتن، لا تدخل شيئاً في المضمون، لأنك مرسل فحسب، مبعوث ليس إلا، مكلف ببلاغ، مسؤول من مهمة، مثلما سمعت بلغ، ومثلما حملت فأدِّ.

بلغ ما أنزل إليك، عرف من عرف وأنكر من أنكر، استجاب من استجاب وأعرض من أعرض، وأقبل من أقبل.

بلغ ما أنزل إليك، بلغ الكل، وادع الجميع، وانصح الكبراء والمستضعفين، السادة والعبيد، الإنس والجن، الرجال والنساء، الأغنياء والفقراء، الكبار والصغار.

OBEIKAN.COM

بلّغ ما أنزل إليك، فلا ترهب الأعداء، ولا تخف الخصوم، ولا تخش الكفار، ولا يهولك سيف مصلت، أو رمح مشرع، أو منية كالحة، أو موت عابس، أو جيش مدجج، أو حركة حامية.

بلغ ما أنزل إليك فلا يغر بك مال، ولا يعجبك منصب، ولا يزدهيك جاه، ولا تغرك دنيا، ولا يخدعك متاع، ولا يردك تحرج.

وشب طفل الهدى المحبوب متشحاً

بالخير متزراً بالنور والنارِ

في كفه شعلة تهدي وفي دمه

عقيدة تتحدى كل جبارِ

وفي ملامحه وعد وفي يده

عزائم صاغها من قدرة الباري

OBEIKAN.COM

﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾

إذا لم تؤد الرسالة كاملة فكأنك ما فعلت شيئاً، وإن لم توصلها تامة فكأنك ما قمت بها حق القيام، ولو كتمت منها مقالة أو عطلت منها نصاً أو أهملت منها عبارة فما بلغت رسالة الله وما أديت أمانة الله، نريد منك أن تبلغ رسالتنا للناس كما ألقيت عليك، وكما نزل بها جبريل، وكما وعاها قلبك.

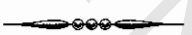

OBEIKAN.COM

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾

بلغ الرسالة كاملة ولا تخف أحداً، وكيف تخاف من أحد ونحن معك نحفظك ونمنعك ونحميك ونذب عنك، لن يقتلك أحد لأن الله يعصمك من الناس، ولن يطفئ نورك أحد لأن الله يعصمك من الناس، ولن يعطل مسيرتك بشر لأن الله يعصمك من الناس، اصدع بما تؤمر، وقل كلمتك صريحة شجاعة قوية، لأن الله يعصمك من الناس، اشرح دعوتك، وابسط رسالتك، وارفع صوتك، وأعلن منهجك، وما عليك؛ لأن الله يعصمك من الناس.

كل قوة في الأرض لن تستطيع إليك، كل جبروت في الدنيا لا يهزمك، كل طاغية في المعمورة لن يقهرك، لأن الله يعصمك من الناس.

OBEIKAN.COM

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾

أما شرحنا لك صدرك، فصار وسيعاً فسيحاً لا ضيق فيه ولا حرج ولا هم ولا غم ولا حزن، بل ملأناه لك نوراً وسروراً وحبوراً.

أما شرحنا لك صدرك ملأناه حكمة ورحمة وإيماناً وبرًا وإحساناً.

شرحنا لك صدرك، فوسعت أخلاق الناس، وعفوت عن تقصيرهم وصفحت عن خطئهم، وسترت عيوبهم، وحملت على سفيههم، وأعرضت عن جاهلهم، ورحمت ضعيفهم.

شرحنا لك صدرك فكنت كالغيث جوداً، وكالبحر كرماً، وكالنسيم لطفاً، تعطي السائل، وتمنح الراغب، وتكرم القاصد، وتجود على المؤمل.

شرحنا لك صدرك فصار برداً وسلاماً يطفئ الكلمة الجافية، ويبرد العبارة الجارحة، فإذا العفو والحلم والصفح والغفران.

شرحنا لك صدرك فصبرت على جفاء الأعراب، ونيل السفهاء، وعجرفة الجبابرة، وتطاول التافهين، وإعراض المتكبرين، ومقت الحسدة، وسهام الشامتين، وتجهم القرابة.

OBEIKAN.COM

شرحنا لك صدرك فكنت بساماً في الأزمات، ضحاكاً في الملمات، مسروراً وأنت في عين العاصفة، مطمئناً وأنت في جفن الردى، تداهمك وأنت ساكن، وتلتف بك الحوادث وأنت ثابت؛ لأنك مشروح الصدر، عامر الفؤاد، حي النفس.

شرحنا لك صدرك فلم تكن فظاً قاسياً غليظاً جافياً، بل كنت رحمة وسلاماً وبراً وحناناً ولطفاً، فالحلم يطلب منك، والجود يتعلم من سيرتك، والعفو يؤخذ من ديوانك.

OBEIKAN.COM

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾

حططنا عنك خطاياك، وغسلناك من آثار الذنوب.

فأنت مغفور لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وأنت الآن نقي طاهر من كل ذنب وخطيئة، ذنبك مغفور، وسعيك مشكور، وعملك مبرور، وأنت في كل شأن من شؤونك مأجور، هنيئاً لك هذا الغفران، وطوبى لك هذا الفوز، وقرة عينٍ لك هذا الفلاح.

OBEIKAN.COM

﴿ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾

أثقل هذا الوزر كاهلك، وأضنى ظهرك حتى كاد ينقضه ويوهنه، فالآن أذهبنا هذا الثقل، وأزلنا هذه التبعة، وأعفيناك من هذا الخطب، فاسعد بهذه البشرى، وتقبل هذا العطاء، وافرح بهذا التفضيل.

OBEIKAN.COM

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾

لا أُذكر إلا تذكر معي، يقرن ذكرك بذكري في الأذان والصلاة والخُطَب والمواعظ، فهل تريد شرفاً فوق هذا؟

يذكرك كل مصل، وكل مسبح، وكل حاج، وكل خطيب، فهل تطلب مجداً أعلى من هذا؟

أنت مذكور في التوراة والإنجيل، منوه باسمك في الصحف الأولى والدواوين السابقة، اسمك يشاد به في النوادي، ويتلى في الحواضر والبوادي، ويمدح في المحافل، ويكرر في المجامع.

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ فصار في الأرض مسير الشمس، وعبر القارات عبور الريح، وسافر في الدنيا سفر الضوء، فكل مدينة تدري بك، وكل بلد يسمع بك، وكل قرية تسأل عنك.

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ فصرت حديث الركب، وقصة السمر، وخبر المجالس، وقضية القضايا، والنبأ العظيم في الحياة.

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ فما نسي مع الأيام، وما محي مع الأعوام، وما شطب من قائمة الخلود، وما نسخ من ديوان التاريخ، وما أغفل العظماء ذاتك، فمن ارتفع ذكره من العباد عندنا فبسبب اتباعك، ومن حفظ اسمه فبسبب الاقتداء بك.

OBEIKAN.COM

ذهبت آثار الدول وبقيت آثارك، ومحيت مآثر السلاطين وبقيت مآثرك، وزالت أمجاد الملوك وخلد مجدك، فليس في البشر أشرح منك صدراً، ولا أرفع منك ذكراً، ولا أعظم منك قدراً، ولا أحسن منك أثراً، ولا أجمل منك سيراً.

إذا تشهَّد متشهد ذكرك معنا، وإذا تهجد متهجد سماك معنا، وإذا خطب خطيب نوه بك معنا، فاحمد ربك لأننا رفعنا لك ذكرك.

OBEIKAN.COM

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾

إذا ضاقت عليك السبل، وبارت الحيل، وتقطعت الحبال، وضاق الحال فاعلم أن الفرج قريب، وأن اليسر حاصل.

لا تحزن فإن بعد الفقر غنى، وبعد المرض شفاء، وبعد البلوى عافية، وبعد الضيق سعة، وبعد الشدة فرجاً.

سوف يصلك اليسر أنت وأتباعك فترزقون وتنصرون.

إنها سنة ثابتة وقاعدة مضطردة أن مع كل عسر يسراً، بعد الليل فجر صادق، وخلف جبل المشقة سهل الراحة، ووراء صحراء الضيق روضة خضراء من السعة، إذا اشتد الحبل انقطع، وإذا اكتمل الخطب ارتفع، سوف يصل الغائب ويشفى المريض، ويعافى المبتلى، ويفك المحبوس، ويغتني الفقير، ويشبع الجائع، ويروى الظمآن، ويسر المهموم، وسيجعل الله بعد عسر يسراً.

وهذه السورة نزلت عليه ﷺ وهو في حال من الضيق وتكالب الأعداء، واجتماع الخصوم، وإعراض الناس، وقلة الناصر وتعاظم المكر، وكثرة الكيد، فكان لابد له من عزاء وسلوة وتطمين وترويح، فنزلت هذه الكلمات المباركات له

OBEIKAN.COM

ولأتباعه إلى يوم القيامة وعداً صادقاً، وبشرى طيبة، وجائزة متقبلة:

اشتدي أزمة تنفرجي

قد آذن ليلك بالبلج

OBEIKAN.COM

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾

إذا انتهيت من أعمالك الدنيوية وأشغالك الشخصية، فانصب لنا بالعبادة، وتوجه لنا بالطاعة، وأكثر من ذكرنا ودعائنا.

إذا فرغت من الناس وقضاياهم وأسئلتهم فقم في محراب عظمتنا، وانطرح على بابنا، واقرب منا، ومرغ جبينك لنا، لتلقى الفوز والفلاح والأمن والنجاة.

إذا فرغت من الأهل والولد والقريب والصاحب فاجعل لك وقتاً معنا، ارفع فيه سؤالك، اعرض فيه حاجتك، أكثر فيه دعاءك، ادعنا وسبحنا واطلبنا واستغفرنا واشكرنا واذكرنا.

إذا فرغت من الأحكام والقضاء والموعظة والفتيا والتعليم والإرشاد والجهاد والنصيحة فتعال لتزداد من قوتنا قوة، ومن مددنا عوناً، ومن رزقنا زاداً، ومن فتحنا بصيرة وذخيرة.

نحن أولى بك منك، وأحق بفراغك من غيرنا، ويا له من توجيه له ولأتباعه عليه الصلاة والسلام في صرف الفراغ في العبودية، وملأ هذا الزمن بذكره وشكره جل في علاه ليحصل المقصود من الرضا والسكينة والفرج والعاقبة الحسنة، وصلاح الحال والمال، وعمارة الدنيا والآخرة.

OBEIKAN.COM

﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾

إلى ربك وحده فارغب، ولا ترغب من غيره شيئاً، وإليه وحده فاتجه وعليه فتوكل، وفيه فأمل، فإن الرغبة والرهبة لا تكون إلا إليه؛ لأنه صاحب الثواب لمن أطاعه، والعقاب لمن عصاه.

والرغائب الجليلة لا يملكها إلا الله، فعنده مفاتح الخزائن، ومقاليد الأمور، فهو أهل أن يدعى وأن يسأل وأن يؤمل وأن يقصد جل في علاه:

إليك وإلا لا تشد الركائبُ

ومنك وإلا فالمؤمل خائبُ

وفيك وإلا فالغرام مضيعٌ

وعنك وإلا فالمحدِّث كاذبُ

وقد تنزلت هذه الكلمات على رسولنا ﷺ في فترات عصيبة، وفي لحظات حاسمة عاشها ﷺ وتجرع غصصها وحسا مرراتها.

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾

لقد فتحنا لك يا محمد فتحاً بيناً ظاهراً مباركاً، فتحنا لك القلوب ففرست بها الإيمان، وفتحنا لك الضمائر فبنيت فيها الفضيلة، وفتحنا لك الصدور فرفعت فيها الحق، وفتحنا لك البلدان فنشرت بها الهدى، وفتحنا لك كنز المعرفة وديوان العلم ومستودع التوفيق، وفتحنا بدعوتك القلوب الغُلف والعيون العمي، والآذان الصم، وأسمعنا رسالتك الثقلين.

فتحنا لك فتدفق العلم النافع من لسانك، وفاض الهدى المبارك من قلبك، وسح الجود من يمينك.

وفتحنا لك فحزت الغنائم وقسمتها، وجمعت الأرزاق ووزعتها، وحصلت على الأموال وأنفقتها.

وفتحنا لك باب العلم وأنت الأمي الذي ما قرأ وما كتب فصار العلماء ينهلون من بحار علمك: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

وفتحنا عليك الخير فوصلت القريب، وأعطيت البعيد، وأشبعت الجائع، وكسوت العاري، وواسيت المسكين، وأغنيت الفقير، بفضلنا ورزقنا وكرمنا.

وفتحنا لك القلاع والمدن والقرى، فهيمن دينك، وارتفعت رايتك، وانتصرت دعوتك، فأنت مفتوح عليك في كل خير وبر وإحسان ونصر وتوفيق.

وفتحنا لك خيبر فسدت اليهود، وأهنت إخوان الخنازير والقرود، ورفعت لك البنود، وأطاعتك الجنود.

وفتحنا لك مكة، فرفعت بها كلمة الحق، وبنيت بها صرح الهدى، وطهرتها من رجس الأوثان، ونجاسة الأصنام، وعبث الأزلام.

OBEIKAN.COM

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ فلا تشرك معه في عبوديته أحداً، ولا تدعو من دونه إلهاً آخر، بل تصرف له عبادتك، وتخلص له طاعتك، وتوحد قصدك له ومسألتك ودعائك، فإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فلا يستحق العبادة إلا هو، ولا يكشف الضر غيره، ولا يجيب دعوة المضطر سواه.

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ فهو أحق من شكر، وأعظم من ذكر، وأرأف من ملك، وأجود من أعطى، وأحلم من قدر، وأقوى من أخذ، وأجل من قصد، وأكرم من ابتغى، فلا إله يدعى سواه، ولا رب يطاع غيره، فالواجب أن يعبد وأن يوحد وأن يخاف وأن يطاع وأن يرهب وأن يخشى وأن يحب.

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ المتفرد بالجمال والكمال والجلال خلق الخلق ليعبدوه، وأوجد الإنس والجن ليوحدوه، وأنشأ البرية ليطيعوه، فمن أطاعه فاز برضوانه، ومن أحبه نال قربه، ومن خافه أمن عذابه، ومن عظمه أكرمه، ومن عصاه أدبه، ومن حاربه خذله، يذكر من ذكره، ويزيد من شكره، ويذل من كفره، له الحكم وإليه ترجعون.

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ فأخلص له العبادة؛ لأنه لا يقبل الشريك، وفوّض إليه الأمر؛ لأنه الكافي القوي، واسأله فهو الغني، وخف عذابه لأنه شديد، واحذر أخذه لأنه أليم، ولا تتعدى حدوده لأنه يغار، ولا تحارب أولياءه لأنه ينتقم، واستغفره فهو واسع المغفرة، واطمع في فضله لأنه كريم، ولذ بجنابه فهناك الأمن، وأدم ذكره لتنل محبته، والزم شكره لتحظى بالمزيد، وعظم شعائره لتفوز بولايته، وحارب أعداءه ليخصك بنصره.

OBEIKAN.COM

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾

هذه أعظم قضية في العالم، وأكبر مسألة في الدنيا، وهي مسألة أن تعلم وتقر وتعترف أنه لا إله إلا الله فلا تعبد غيره، ولا توحد سواه.

إن الخلق خلقوا ليعلموا أن لا إله إلا الله، وأن الكتب نزلت لتثبت لا إله إلا الله، وإن الرسل بعثت لتدعو إلى لا إله إلا الله، فقبل أن تعلم اعلم أنه لا إله إلا الله، وقبل أن تدعو حقق لا إله إلا الله، وقبل أن تأمر وتنهى صحح لا إله إلا الله.

إن بداية الطريق لمن أراد الحياة الطيبة والعيش السعيد والخاتمة الحسنة والخلود في الجنة لهي هذه الكلمة الرائدة الخالدة بكل ما تحويه من معنى أراده الله عز وجل يوم فرض على العباد تحقيقها، ولابد لهذه الكلمة من اعتقاد جازم لا يخالطه شك، وحب صادق لا يكدره سخط، وصدق في قولها لا يمازجه كذب، وعمل بمقتضاها لا يناقضه مخالفة، ودعوة إليها لا يصاحبها فتور، وسلامة من كل ما يضادها أو يعارضها من شرك أو رياء أو بدعة ليكون قائلها أسعد الناس بها في الدنيا والآخرة.

OBEIKAN.COM

لقد نزلت هذه الآية على الرسول ﷺ وهو أول داعية ليكون القدوة للناس، والأسوة للبشر في معرفة سر هذه الرسالة الخاتمة، ومعرفة مقصدها ومرداها.

إن موجزها تعريف الناس بكلمة لا إله إلا الله، وكل قول وعمل واعتقاد في الدين فإنه من هذه الكلمة انبثق، وإن هذه العبارة شعار فهي أصول الأصول، وبوابة الديانة، وطريق الفلاح، ولأن الله صاحب الكمال والجلال والجمال والعظمة فحقنا أن نوحده بلا إله إلا الله، ولأننا أهل الذنب والخطيئة والعيب والتقصير فعلينا بالاستغفار؛ ولهذا قال بعدها: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، إن الله هو الخالق الرازق، وهو حقيق بالألوهية والربوبية، وإن العبد مخلوق مرزوق مطعوم محتاج، فحقه أن يستغفر فقط من سيئاته وخطاياه.

إن بين لا إله إلا الله واستغفر صلة، كما بين الرب القوي الغني الماجد الواحد الجواد، وبين العبد الضعيف الفقير الحقير المحتاج الفاني، كل فضل وكل نعمة وكل عطية فمن الله، فواجب علينا أن نقر له بلا إله إلا الله، وكل خلل وزلل وعلل فمنا فحق علينا قول: أستغفر الله.

OBEIKANDI.COM

إن العبد بين نعمة وذنب؛ ولهذا جاء في الحديث: «**وأبوء بنعتمك عليّ وأبوء بذنبي**». فالنعمة من الله الذي لا إله إلا هو، والذنب من العبد الذي منجاته في التوحيد والاستغفار.

إن التوحيد حق لله لا ينازعه أحد فيه؛ لأنه واحد في ربوبيته وأسمائه وصفاته وأفعاله، والاستغفار نجاة للعبد الذي غره شيطانه وخدعته نفسه وغلبه هواه وأشغلته دنياه فوقع في المعصية.

والآن لك أن تعرف سر الاقتران اللطيف بين التوحيد والاستغفار، وهذا وارد في عدة مواطن في القرآن مثل: ﴿**فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ**﴾. ومثل: ﴿**لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾، وعند أبي يعلى في الحديث: «**أن الشيطان يقول: أهلكت العباد بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار**».

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾

تبدأ قصة النبوة بكلمة اقرأ يوم نزلت على رسولنا ﷺ في الغار، ومن بداية اقرأ بدأنا، بدأ تاريخنا ومجدنا وحياتنا، ومن تاريخ نزول اقرأ بدأت مسيرتنا المقدسة، وتغير بها وجه الأرض، وصفحة الأيام، ومعالم الدنيا، فتلك اللحظة هي أسعد لحظة في حياتنا نحن المسلمين، وهي اللحظة الفاصلة بين الظلام والنور، والكفر والإيمان، والجهل والعلم، واختيار اقرأ من بين قاموس الألفاظ وديوان اللغة له سر عجيب ونبأ غريب، فلم يكن مكان اقرأ غيرها من الكلمات لا اكتب ولا ادع ولا تكلم ولا قل ولا اخطب، إنما اقرأ، ويالها من كلمة جلية جميلة أصيلة.

اقرأ يا محمد قبل أن تدعو، واطلب العلم قبل أن تعمل ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾.

إن اقرأ منهج حياة ورسالة حية لكل حي تطالبه بتحصيل العلم النافع وطلب المعرفة، وأن يطرد الجهل عن نفسه وأمته.

وأين يقرأ - بأبي هو وأمي - وهو ما تعلَّم على شيخ ولا رأى كتاباً ولا حمل قلماً؟

يقرأ أولاً باسم ربه كلام ربه، فمصدره الأول الوحي يتلوه غضاً طرياً، ويقرأ في كتاب الكون المفتوح ليرى أسطر الحكمة تخطها أقلام القدرة، فيقرأ في الشمس الساطعة، والنجوم اللامعة، والجدول والغدير، والتل والرابية، والحديقة والصحراء، والأرض والسماء:

وكتابي الفضاء أقرأ فيه

صوراً ما قرأتها في كتاب

وكلمة اقرأ تلك تدل على فضل العلم وعلو مكانته، وأنه أول منازل الشرف والرفعة، وطريق السيادة والمجد، وبوابة السعادة والنجاح..

وكل سعادة وفلاح فسببها العلم، فرسالته ﷺ علميّة عملية؛ لأنه بعث بالعلم النافع والعمل الصالح: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث**».

فاليهود عندهم علم بلا عمل، فغضب عليهم، والنصارى لديهم عمل بلا علم، فضلوا، فأمرنا بالاستعاذة من سبيل الطائفتين: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وكلمة اقرأ رسالة موحية لها دلالات وأبعاد وأسرار، فهي إبقاء للهمة لتطلب الهدى من مظانه، وتغوص في فهم الحياة،

وتبحث عن الحقيقة، وتكتشف أسرار الكون، وتطالع الآيات البينات في الإنسان والحيوان والجماد، وتسافر مع البحث العميق والدراسة المتأنية والعمق المعرفي الذي يكشف عظمة الخالق وقدرة الباري وحكمة الصانع جل في علاه.

OBEIKAN.COM

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

أنتم الأمة الوسط، وأنتم وسط بين اليهود الذين قتلوا الأنبياء والنصارى الذين عبدوهم، إذ إنكم أطعتموهم واتبعتموهم، وأنتم وسط في الزمان، ما جئتم في أول الزمان فلا تجارب ولا تاريخ، وما جئتم في ذيل الدهر، بل سبقكم أمم وجاء بعدكم أجيال، فاعتبرتم بالسابقين، وأفدتم اللاحقين.

ووسط أنتم في المكان، فلستم في زوايا الأرض ولا في أطراف الدنيا، بل كنتم في قلب المعمورة، فدينكم شع من أم القرى لتوزعوا الهداية على الناس، وأنتم وسط في الديانة فلم تعبدوا كل شيء من حجر وشجر ومدر كما فعل المشركون، ولم ترفضوا العبودية جملة وتفصيلاً كما فعلت بعض الأمم، بل عبدتم الواحد القهار، ووحدتم العزيز الغفار.

ووسط أنتم في المعيشة، فلم تفعلوا فعل اليهود في البذخ والإسراف والانهماك في اللذائذ وتصيد الشهوات، ولم تفعلوا فعل النصارى في الرهبانية والانقطاع والتبتل وعذاب النفس، بل أعطيتم الجسم حظه والروح حقها.

ووسط أنتم في الفنون فلم تفعلوا ما فعل فارس إذ كانت حياتهم هوايات وتسليات، ولا فعل الروم إذ جردوا حياتهم من

كل ممتع بهيج، بل لكم الجمال المباح والسحر الحلال من الأقوال والأفعال، والنافع المفيد من مباهج الحياة.

وأنتم وسط في الأخلاق، فلم تفعلوا فعل الأمم العدوانية المتوحشة الذين بغوا وطغوا وفتكوا، ولم تنهجوا نهج من استسلم لخصمه وذل لعدوه وقال: «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر»، بل عندكم صفح وحلم عمن يستحق، وتأديب وقصاص لمن يعتدي، والكل له قدر.

وأنتم وسط في باب العلم فلم تجعلوا العلم مقصوداً لذاته كما فعل اليونان، ولم تهملوه وتضيعوه فعل الأمم البليدة التي غلب عليها الغباء؛ بل جعلتم العلم وسيلة إلى كل فضيلة، وطريقاً إلى صلاح الدنيا والآخرة والفلاح في الدارين.

ووسط أنتم في العبادة فما أعرضتم عن النسك فعل الفجرة الجفاة، وما شققتم على نفوسكم وعذبتم أرواحكم فعل أهل الصوامع الغلاة؛ بل اقتصدتم في العبادة مع الحسن، واعتدلتم في النسك مع الجودة.

ووسط أنتم في التفكير فما همتم مع الخيال فعل الشعراء الذين هم في أودية الوهم هائمون، وما جمدتم جمود الفلاسفة الذين قتلوا العواطف وعطلوا المشاعر حتى جفت نفوسهم وقست قلوبهم، بل أنتم مع الحقيقة سائرون، فجمعتم

بين القوة والرحمة، والواقعية والجمال، والنص والمعنى، فأنتم وسط بين طرفين، وحسنة بين سيئتين، ونجاة بين مهلكتين، وقد وفق الله أهل السنة والجماعة ما بين قدرية يقولون إن الأمر مستأنف ولم يسبق قضاء من الله والجبرية الذين قالوا لا مشيئة للعبد وهو مجبور على كل فعل يفعله من طاعة ومعصية، فأهل السنة أثبتوا علم الله وقضاءه وقدره ومشيئته وأثبتوا للعبد مشيئة، تحت مشيئة الله.

وهم وسط في باب الوعد والوعيد بين الخوارج الذين كفروا بالكبيرة والمرجئة الذين قالوا لا تضر المعاصي مع الإيمان.

فأهل السنة لم يكفروا أهل الكبائر وإنما فسّقوهم وقالوا بنقص إيمانهم.

وهم وسط في باب الأسماء والصفات بين من نفاها وشبه الله بخلقه أو مثله بهم، فأثبتوا ما أثبته الله ورسوله من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

ووسط في باب حب أهل البيت بين النواصب الذين سبوهم والروافض الذين غلوا فيهم وسبوا الصحابة لأجلهم فأحبهم أهل السنة وتولوهم وأنزلوهم المنزلة اللائقة بهم.

﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾

يقول الجن لما سمعوا القرآن: إنا سمعنا قرآناً عجباً. عجيب!! حتى الجن يتعجبون من القرآن، ومن الذي لا يعجب من القرآن؟! ومن هو الحي الناطق السميع البصير الذي لا يعجبه القرآن ويشجيه ويبكيه؟؟ ومن هو الذي له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ولا يتأثر بالقرآن؟! أما الإنس فقد عجبوا كل العجب وذهب بهم الإعجاب كل مذهب، وقال قائلهم: إن له حلاوة وعليه طلاوة، وأما الجن فهم يصيحون صيحة المعترف: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ فهو العجب كله، والحسن أجمعه، في آياته، ففيها من التناسق والتناغم والروعة ما يفوق الوصف والعجب في سُوَرِهِ، فلكل سورة مشهد وإيحاء ورسائل غير الأخرى، وعجيب في عرضه الذي يقتحم أسوار النفس، ويزلزل أعماق القلب، ويحتل مناطق التأثير، ويجتاح مستعمرات الضمير.

عجب لهذا القرآن، نعيده نكرره نشرحه نتدارسه نحفظه ثم يبقى غضاً راقياً مشرقاً جديداً، عجباً لهذا كأنه يسوقنا إلى الآخرة بجحافل من رعب، وكأنه يحجزنا عن الإثم والخطيئة بسياج من الهدى، وكأنه يبعثنا كل يوم من قبور

الإهمال وأجداث النسيان، عجب لهذا القرآن كلما لغونا ولهينا وسهرنا نادانا من جديد، هلمّوا إلى الحق والجد والعمل، كلما ضعنا وتهنا وضللنا صاح بنا هنا الطريق هنا الهدى هنا الفلاح، كلما أذنبنا وأخطأنا دعانا أقبلوا على رب رحيم وملك كريم وجواد حليم، كلما فترنا وتكاسلنا وتراخينا هزنا يا ناس واصلوا، ياقوم عجلوا وأبشروا واجتهدوا، كلما غضبنا وحزنا وضاقت السبل أمامنا صب القرآن على قلوبنا سحب الرضوان والسكينة والأمن، صدق الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ إنه كلام يشبع الروح، ويروي غليل النفس، ويغسل أدران الضمير، إنه أحسن الحديث صدقاً ومتاعاً وفخامة وأصالة، إنه أحسن القصص تسلية وتعزية وأسوة، إنه موعظة تردع عن الزلل وتحمي من الانحراف وتعصم من الذنب وصدق الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾.

تسمع القصائد وتنصت للمحاضرات وتروعك الخطب تشجعك المواعظ ثم تسمع القرآن فكأنك ما سمعت شيئاً وما أعجبك شيء، وما نهرك شيء، لأنه كتاب لا ريب فيه، يرشد من الحيرة، ويحفظ من الضلال، ويعصم من الزيغ، فالقرآن حياة من الهناء والسعادة، وعالم من الإبداع والجمال، وتاريخ من الأحداث والقضايا، وسجل من الشرف والرفعة، وديوان

من الخلود والنبل، بل تاريخ أمة، وخطاب عالم، وكلام إله، ومستقبل أجيال، وقضية معجزة، هو حق يدفع باطل، ونور يكشف ظلاماً، وصدق ينهر كذباً، وهدى يحارب ضلالاً، وعدل يطارد ظلماً، وصدق الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾.

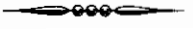

OBEIKAN.COM

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾

مدح الله نفسه بهذا الوصف المتضمن قدرته جل في علاه، وأنه لا يقع شيء في العالم إلا بإذنه، فهو كل يوم في شأن، يخفض ويرفع، يعطي ويمنع، يقبض ويبسط، يولي ويخلع، يغني ويقني، يضحِك ويُبكِي، يميت ويحيي، يهدي ويضل، يعافي ويبتلي.

كل يوم هو في شأن؛ يعطي فقيراً، يهدي حائراً، يشافي مريضاً، يردَّ غائباً، يرشد ضالاً، يشبع جائعاً، يسقي ظمآناً.

كل يوم هو في شأن؛ يسحق طاغياً، يمزق باغياً، يكبت فاجراً، يهزم كافراً، يخذل عدواً، يرد معتدياً، ينصر ولياً، يحفظ صالحاً، ينجد ملهوفاً، يجيب داعياً، يحمي مظلوماً، يعطي سائلاً، يمنح نائلاً، يجبر كسيراً، يعين مسكيناً، يرحم ميتاً، يعافي مصاباً، يدحض باطلاً، ينصر حقاً.

كل يوم هو في شأن؛ ينزل الغيث، يسوق الغمام، يجري الريح، يسخر البحر، يزيد العابدين، يوفق الصالحين، يدل المجتهدين، ينصر المجاهدين، يؤمِّن الخائفين، يتوب على التائبين، يغفر للمستغفرين.

OBEIKAN.COM

كل يوم هو في شأن؛ يولج الليل في النهار، يرسل البرق يكاد يذهب بالأبصار، يجري السفن في البحار، يحوط المسافرين من الأخطار.

كل يوم هو في شأن؛ يكشف كرباً، يزيل خطباً، يغفر ذنباً، يحل ويبرم، يقدم ويؤخر، يثيب الطائع، يحلم على المقصر، يتجاوز عن المسيء، يستر المذنب، يمهل العاصي.

كل يوم هو في شأن؛ يفلق الحب والنوى، يعلم ما في الأرحام، يكتب الآجال، يحصي الأعمال، ينزل الأرزاق، يفك القيود، يطلق الأسرى، يكلؤ من في البر والبحر، يرعى المسافرين، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

كل يوم هو في شأن؛ يطلع على ما في السرائر، يعلم ما في الضمائر، يجيب المضطر، ينقذ من المخاطر، يعصم من المهالك، يهدي من الغي، يبصِّر من العمى، يرشد من الحيرة.

كل يوم هو في شأن؛ يعزل ولاة، يخلع ملوكاً، يهلك دولاً، يبيد شعوباً، يأخذ المتكبرين، يقصم المتجبرين.

وإن من ينظر في الكون نظرة المتبصر ويتفكر في المخلوقات وما يقع في الأرض من أعمال وحوادث يعجب من عظمة الملك الواحد الأحد وسعه اطلاعه وبالغ علمه، جل في

علاه، فكل حركة معلومة، وكل لفظة محسوبة، وكل نقطة أو ورقة أو ثمرة محصية، عالم هائل من الحياة والموت، والغنى والفقر، والصلاح والفساد، والسلم الحرب، والهداية والغواية، والصحة والمرض، كل ذلك بإذن الملك الحق الذي لا تخفى عليه خافية من أعمال هذه الخليقة، فلا يلتبس عليه أمر، ولا تختلف عليه لغة، ولا يعزب عن علمه شيء، ولا تفوته حركة، ولا تند عن علمه كائنة، وقد وسع علمه كل شيء، وقد عم فضله وانتشر إحسانه.

إن العالم شركة صاخبة من البناء والنتاج والتزاوج والتوالد والاتفاق والاختلاف والسلم والحرب، تصالح وتقاتل، تآلف وتباين، بيع وشراء، حِلٌّ وترحال، يقظة ونوم، حياة وموت، لكن المذهل أن ذلك بعلم الأحد الصمد وبتقديره وتدبيره واطلاعه جل في علاه.

ملائكة تكتب وسجلات تحصى وأقلام تخط ودواوين محفوظة، والرقيب الحسيب على ذلك كله عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية.

OBEIKAN.COM

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾

هذا قول إخوان القردة والخنازير الأنذال، يقولون يد الله مغلولة، أي بخيلة ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾، قاتلهم الله كيف تكون يد الجواد الماجد مغلولة، وكل نعمة قديمة أو حديثة، ظاهرة أو باطنة، جليلة أو قليلة منه وحده جل في علاه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ كيف تكون يده مغلولة؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهو الذي صمدت إليه الكائنات، وسألته المخلوقات مع اختلاف اللغات، وتعدد اللهجات، بشتى الحاجات، فأعطى الجميع، ومنح الكل، وما نقصت خزائنه ولا انتهى فضله، يقول عز وجل: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**».

كيف تكون يده مغلولة وهو الذي يطعم كل مخلوق، ومن فضله يعيش كل حي ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ يطعم الطير في الهواء، والسمك في الماء، والوحش في البيداء، والدود في الطين، والليث في العرين: ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾.

عم فضله، وشمل نواله، وعظم كرمه، وظهر جوده، من جاد فمن جوده يجود، عاش أعداؤه من فيض عطائه، وتقلب عبيده في نعمائه.

كيف تكون يده مغلولة وقد طبق العالم إحسانه، وعم الكون امتنانه، ملأ الخزائن، وأشبع البطون، فبابه مفتوح، وجوده يغدو ويروح، وخيره ممنوح، يعطي قبل السؤال، ولا يغيض ما عنده النوال؛ لأنه ذو الجلال والجمال والكمال.

هل من رازق غيره؟ هل من معط سواه؟ هل من متفضل إلا هو جل في علاه؟ وتأمل قوة الرد على فرية اليهود وجزالة اللفظ وإشراق المعنى وبراعة الحجة، فإنهم قالوا لعنهم الله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، فخصوا يداً واحدة، فرد عليهم بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، فرد بالجمع، ثم قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ فذكر اليدين الاثنتين المباركتين، ثم وصفهما بأنهما مبسوطتان بالعطاء، ثم ذكر كيفية العطاء وحال هذا السخاء فقال: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، فتقدس اسمه ما أكرمه، وتبارك في علاه ما أحلمه، وعز جاهه ما أعلمه.

وانظر إلى منهج القرآن كيف أورد الشبهة باقتضاب ثم رد عليها بإسهاب، وأطنب في تفنيدها ودحضها حتى شفى القلب

بهذا البيان الناصع، والبرهان الساطع، بخلاف ضعاف المجادلين فإنهم يتوسعون في عرض الشبهة، ثم يردون عليها رداً ضعيفاً فتبقى آثارها في القلب شبهاً وشكوكاً، فتبارك الله ما أحسن قيله.

وانظر إلى صدق المهيمن وكمال جبروته، فإنه أخبرنا بهذه المقولة الخاطئة الهابطة من هؤلاء الحقراء التافهين، وهي مقولة تتعرض لذاته المقدسة ومقامه العظيم، ومع ذلك ذكرها صريحة مثلما قالوها، قاتلهم الله. بخلاف البشر، فإنهم لضعفهم وعجزهم لا يذكرون ما يقال عنهم من شتم، وإن قالوا فباستحياء وخجل على مذهب كاد المريب أن يقول خذوني، لكن الله عز وجل لتفرده بكل وصف جميل لم يبال بهذا السقط من القول، والسخف من الحديث، بل ذكره ليدحضه، وأخبر به ليدفعه، وهو ما حدث في هذا الخطاب الباهر العجيب.

OBEIKAN.COM

﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾

هذا وعد من أصدق القائلين، وهي بشرى لعباده المؤمنين، أن سنته الماضية وحكمته القاضية، بأن العسر بعده يسر، فلا يضيق الأمر ويشتد الكرب إلا ويتبعه يسر، فبشر كل مكروب ومنكوب بفجر صادق من الفرج يصادر فلول الشدائد، وما أحسن هذه الآية سلوة للمعذبين بسياط الظالمين، وعزاء للمصابين، وبشرى لأهل البلاء، وهذه الآية هدية غالية لمن طرح في السجن، وغلت يداه، وكبلت رجلاه، ليعلم أن فرجه قريب، وخروجه وشيك إلى عالم الحرية والانطلاق، وهي تحفة ثمينة لمن أقعده المرض، وأضناه البلاء، أنه موعود بشفاء عاجل، وعافية قادمة، فبعد الجوع شبع، وإثر التعب راحة، وعقب السقم شفاء، وخاتمة الشدة رخاء، ونهاية الفقر غنى، النهار يخلف الليل، والنور يطوي الظلام، والماء يزحف على الجدب.

إذا امتدت الصحراء فوراءها رياض خضراء، وإذا اشتد الحبل انقطع، إذا رأيت السحب السود فاعلم أن الغيث الهنيء في جوانحها، وإذا هالك الظلام فتيقن أن الصباح مقبل لا محالة.

OBEIKAN.COM

إن العسر بعده يسران وليس يسر واحد، لتعلم أن مرارة المعاناة لها نهاية، وشظف العيش إلى انقطاع، وكبد الحياة إلى راحة، لو أن الخوف دائم لتقطعت النفوس حسرة، ولكن بعد أمن وسكينة، ولو أن الحزن مستمر لزلزلت القلوب زلزالها ولكن يعقبه سرور وأنس، ولو أن اليأس مقيم لاسودت الحياة في العيون، لكن خلفه أمل فلا تيأس من روح الله ولا تقنط من رحمة الله، لا تصارع الأوهام، وتقاتل الوساوس، بل انظر من بوابة الرجاء لترى العالم المشهود، والحضرة المأنوسة، والسعادة القادمة، ولترى العناية الربانية تغمرك، واللطف الإلهي يحوطك.

﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فاغسل همومك بنهر التوكل، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وذكر نفسك ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، واحذر من تصديق وعد الأفاك الأثيم والشيطان الرجيم؛ لأنه يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، ولكن صدق موعد أصدق القائلين: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

فبشر آمالك بمستقبل زاه وغد مشرق وفجر باه جديد؛ لأنه سبحانه ما ابتلاك ليهلكك، وما أبدك ليخزيك؛ بل أراد أن يذكرك بسوط من ألم، وأن يوقظك من غفلتك بوخزة من ندم،

وينبهك من رقدتك بجرعة من سقم؛ لتتذكر بالمصيبة النعمة، وبالبلاء العافية، وبالمرض الصحة، وبالسجن الحرية، وبالجوع الشبع، وبالتعب الراحة، فتكون شاكراً ذاكراً، فهو لطيف في الحالين، وحكيم في المسلكين، ولا تدري بالأصلح، ولا تعلم بالأحسن، بل هو الأعلم الأحكم الأحلم الأرحم، جل في علاه، فارض باختياره فاختياره، لك خير من اختيارك لنفسك، وعلمه بمصالحك أجل وأعظم من علمك؛ لأنك عبد جاهل فقير ضعيف، وهو عليم غني قوي ملك رحمن رحيم:

عسى فرج يكون عسى

نعلل نفسنا بعسى

فلا تجزع إذا قابلـ

ـت هماً يقطع النفسا

فأقرب ما يكون المر

ء من فرج إذا يئسا

﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾

الأقضية تقوم على أمرين إما حكم وإما صلح، فالحكم قضية عادلة وحكم نافذ، وقد يترك في نفس أحد الخصمين أثرًا، فإن الحق لا يرضي الطرفين كما قال الأول:

إن نصف الناس أعداء لمن

ولي الأحكام هذا إن عدل

ولكن الصلح خير، فهو أحسن أثراً، وأسلم عاقبة؛ لأنه يبنى على كرم النفس، وسماحة الطبع، فهو يأتي عفواً بلا حكم صادر من أحد، بل من جودة السجية، وحسن الخلال، فالذي يسعى بالصلح مسدد معان محبوب؛ لأنه يريد البناء والخير، ولهذا قال شعيب: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾.

عفا عمن ظلمه في عرضه، فالصلح خير على كل جهة أردت؛ لأنه لا يندم على الصلح أحد، إذ يعوض الله قابلَ الصلح سكينةً وأمنًا، وبرد عفوٍ ولذة كرم، يجدها في قلبه، لأن المصالح كريم، والكريم واسع البطان، رحب الباع، منشرح الصدر، بخلاف رافض الصلح فإنه يعاقب بحرج في صدره، وضيق في نفسه، جزاءً وفاقاً لعمله.

واعتبر هذا بالبخيل والجافي الغليظ واللحوح الشحيح، ففيه من جدب النفس، وقحط الروح، وضيق الخلق، ما يفوق الوصف مجازاة لفعله الشنيع.

وما أجمل هذا التعقيب الباهر الساطع: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ وهو تحذير للنفوس من هذا المرض الذي يصحبها، ويغلب عليها فلا تقبل صلاحاً، ولا تعفو عن مظلمة، ولا تتنازل عن حق، ولا تعطي نوالاً إلا من رحم الله، ولكن في قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ﴾ صورة حية لحضور شبح الشح الجاثم القاتم، وكأنه ليل مكفهر، حضر بأسماله السوداء ووجه العابس.

ثم ذكر الأنفس لأنها مصدر الخير والشر، والجود والبخل، فمن حدث نفسه بالمعروف قبل الصلح وسعى إلى المسامحة، ومن بخلت نفسه وظنت ضيقت على عباد الله، وسعت في استيفاء حقوقها بشراسة وعناد، وفي قوله: ﴿الشُّحَّ﴾ إشراق في العبارة؛ لأن الشح غاية البخل ومنتهاه، وهو أشمل من البخل الذي هو منع العطاء، وحبس التدفق، يزيد بترك العفو، ورفض المسامحة، والسعي في المطالبة والمعاتبة والمضاربة حتى قال ابن تيمية: المؤمن الصادق لا يضارب ولا يعاقب ولا يطالب، وإنما يمنع الإصلاح، قبول شح

الأنفس الأمارة، ولهذا حسن أن يزف في سياق الآية، فمن نجا من شح نفسه عاش صالحاً مصلحاً، فصار كالغمامة أينما حلت هلت، فهو جواد عن الخصومة، سهل عفو عند المنازعة، يسيرٌ عند الجدال، صفوح عن المعاتبة، بخلاف الشحيح فهو بخيل بنواله، ثقيل في مطالبه، عنيد في خلافه، شرس في طباعه، وصدق الله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾

الهماز اللماز إنسان ساقط في مجال الشرف، منحط من رتبة القيم، منسي في ديوان المثل السامية، لأنه هماز للأعراض، لماز لعباد الله، وهو يهمز بقوله، ويلمز بفعله، فعينه ويده تهمز، ولسانه يلمز، ويل لهذا بالوعيد من عذاب شديد، ومن منال أكيد، ويل لهذا المتسلق على أكتاف البرءاء، القارض لأعراض الصالحين.

إن هذا الشرير همه فقط اقتناص المعائب، وجمع المثالب فهو يفرح بالزلة، وتسره السقطة، وتعجبه الغلطة، فهو يذكر السيئات في الناس ولكنه ينسى الحسنات، يستحضر الأخطاء غير أنها تغيب عنه الإصابات؛ لأن نفسه الأمارة مريضة:

ومن يك ذا فم مريض

يجد مراً به الماء الزلالا

ولأن عين رشده بها رمد:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد

وينكر الفم طعم الماء من سقمِ

لا يفرح بالفضائل التي تحملها القلوب الطاهرة؛ لأنه جحود حسود، لا يرتاح للصفات الجميلة والمعاني الجليلة في الناس؛ لأن فعله سيئ، وقلبه أسود ولسانه مر:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه

وصدق ما يعتاده من توهم

ويل لهذا الهمزة اللمزة من عذاب الله وغضبه، كيف يجور في حكمه، فهو بالمرصاد لعباد الله، ينشر مساوئهم، يتفكه بمعائبهم، يفرح بزلاتهم، يسعد بعثراتهم، وهو يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا؛ لأنه مخذول مهين، ويضيق ذرعاً بالأوفياء النبلاء والصالحين الأخيار؛ لأنه مارد أثيم، إن سلامة القلب وعفة اللسان موهبة ربانية يغدقها الله على من يشاء من عباده، فترى صاحبها ستراً عفيفاً، طاهر الضمير، صاف السريرة، سليم الصدر، يثني على الجانب المشرق في حياة الناس، تعجبه الخلال الحميدة، تفرحه الخصال الجميلة، يحمل إخوانه على السلامة، يلتمس للعباد العذر، يشيد بالمكارم، ويهمل ما سوى ذلك، ليس عنده وقت لتشريح عباد الله على خشبة نقده، وما عنده فراغ لإحراق أوراق الصالحين بناره.

وإن من يتدبر هذه الآية ينتابه خوف مزعج من عواقب إرسال اللسان في الأعراض، واغتياب عباد الله، وتتبع عوراتهم، وإنها علامة الإفلاس، ونهاية الخذلان، وويل لمن هذا فعله، قاتله الله كيف نسي نفسه، وتقويم اعوجاجه، وإصلاح ما فسد من أخلاقه، وبناء ذاته، وذهب ـ تباً له ـ يتفحص ما ستر الله من العباد، ويكشف المغطى من سجايا الناس، فهو عدو للنجاح، حرب للفضيلة، هدم لصروح المكارم، وويل لكل همزة لمزة.

OBEIKAN.COM

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾

كتاب الله ليس حديثاً يفترى، فما نظمه شاعر، ولا نفثه ساحر، ولا تفوه به كاهن، بل هو كلام الملك الحق المبين.

إن الأحاديث المفتراة متروكة لأساطين الأراجيف، ودهاقنة الزور، وأبطال الشائعات، وحملة الكذب، أما القرآن فهو الصدق كله، والحق أجمعه، لأن الله قاله، وجبريل حمله، ومحمد أداه، تعالى الله وتقدس أن يكون كتابه مفترى، فهو أصدق القائلين، يقول الحق وهو يهدي السبيل.

إن أهل الافتراء أصناف من البشر كتب الله عليهم الخذلان، منهم دجال مريب، يزرع الخرافات وينشر الأكاذيب ليصرف قلوب الناس إليه، ومنهم شاعر أفاك، يمدح بالباطل ويهجو بالزور ليأكل بلسانه ويعيش بهذيانه، ومنهم ساحر شرير، يقلب الحقائق ويغير الثوابت لينال الحظوة ويكسب المنزلة، ومنهم كاهن فاجر، يدعي علم الغيب ويزعم معرفة المستقبل ليروج بضاعته المزجاة وكسبه الزائف على الخليقة.

أما هذا القرآن الذي طرق العالم، وهز القلوب وأذهل العقول، وأسكت الفصحاء فشأن آخر، إنه فيض من الحقيقة،

OBEIKAN.COM

ونهر من النور، أنزله الحكيم الخبير تبياناً لكل شيء، فهو أحسن الحديث، وأحسن القصص، وأجل المواعظ، وأصدق الكلام، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه نزل لهداية القلوب، وتطهير السرائر، وعمارة الضمائر، فهو معصوم من الفرية، محفوظ من الكذب، منزه من الزور.

إن الوحي المقدس محفوظ عن نسج الخيال، وتصوير الوهم، فلا يدخله الشك، ولا يتطرق إليه الاحتمال، ولا يمازجه الهزل؛ لأنه يقين في نقله، صادق في خبره، عادل في حكمه، وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً.

إن على من أعرض عن القرآن واستبدله بأقوال البشر وخيالاتهم وأوهامهم أن يتوب إلى ربه من هذا المسلك المشين، والمذهب البشع؛ لأنه استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، فإذا لم تكن الحياة مع القرآن فمرحباً بالموت، وإذا لم يكن العيش مع هذا الوحي فأهلاً بالمنية؛ لأنه ليس بعد الحق إلا الضلال.

يكفي القرآن شرفاً أنه حديث لا يفترى، ويكفي أحاديث السمر وروايات البشر من حياة الفنانين أنها ترهات؛ لأنها وهم بلا صحة، وخيال بلا حقيقة، وظل بلا صورة، فكان جزاؤها

الإهمال والضياع والخمول، وكان حق القرآن الخلود والبقاء والذيوع: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

OBEIKAN.COM

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾

الأفاك هو الكاذب في قوله، والأثيم هو الفاجر في فعله؛ من جمع هذين الوصفين استحق الخزي والويل؛ لأن من هذا فعله فهو غاو منحرف، فالكذب واختلاق الأقوال وقلب الحقائق والزور في الحديث، دليل على مهانة صاحبه وخسة طبعه وحقارته.

والفجور وعدم مراعاة عهد الله وميثاقه وحفظ حدوده برهان على مرض القلب وفساده.

وإن من أعظم الذنوب الكذب، فهو أصل النفاق وماؤه ومادته، لا أمان له ولا نور عليه، ولا حجة معه؛ لأنه زائف دجال، والأثيم منتهك للمحرمات، جريء على الحمى، لا يردعه دين ولا تحميه قيم، وفساد الناس مرجعه إلى الكذب في الأقوال، والفجور في الأفعال، فالكذب ينتج الزور والافتراء والبهتان واليمين الغموس مع ما يتبع ذلك من قلب الحقائق والتضليل على الناس، واللعب بالأحكام وتشويه الأخبار، مع توليد الشائعات وتصوير الزيف الرخيص. والفجور ينتج منه سفك الدماء، وسلب الحقوق، ونهب الأموال، وارتكاب

الفواحش، فعاد الفساد في العالم إلى هذين الوصفين الأثيمين، فحق على من نصح نفسه وأراد نجاته من البوار أن ينقذ نفسه من مغبة الكذب والفجور بتحري الصدق واستحباب التقوى، ليحصل للعبد الأمان من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، إن مواهب الدنيا من مال وولد ومنصب وجاه لن تنفع صاحبها ما لم يركب قارب النجاة من الصدق مع الله، وردع النفس عن هواها، والقيام بأمر الله في الأقوال والأعمال، ويكفي تهديداً ووعيداً قول جبار السماوات والأرض: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.

فما بعد هذا من زاجر وليس وراءه من واعظ، إن قائمة الكذبة والسحرة والكهنة وشهود الزور تندرج تحت عنوان الأفاك، وإن قائمة القتلة واللصوص والزناة وأهل السكر والنهب تنضوي تحت كلمة أثيم، فمن جمع الإفك والإثم فقد جمع الخسران، وحق عليه البوار، وكتب عليه الشقاء، جزاء قوله الشنيع، وفعله الفظيع، وما ربك بظلام للعبيد.

OBEIKAN.COM

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾

أشغلكم تكاثركم بالأموال والأولاد والأشياء عن الاستعداد للِّقاء المحتوم واليوم الموعود. والالتهاء بالتكثر عن المقصد خذلان، والاشتغال بالوسائل عن المقاصد إفلاس، فالتكاثر يكون بجمع المال وتكديسه وتخزينه، فلا ينفق في الحقوق ولا تؤدى به الواجبات، فيكون الفقر الحاضر والشغل الدائم:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله

مخافة فقر فالذي صنع الفقر

والتكاثر في الأولاد والاعتداد بهم بطراً ورئاء الناس دون أثارة من صلاح أو سعي لرشد، والتكاثر بالنعم ترفاً وبذخاً وإسرافاً؛ لتكون من أعظم العوائق عن الهداية والتزود بالصالحات، والتكاثر ضربٌ من السفه ومذهبٌ من الرعونة، يناسب عقول الصبيان وطموح الولدان، والتكاثر بالعوامل بلا عمل، فتجتمع في الذهن بلا بصيرة، ويفني في تحصيلها العمر بلا ثمرة، وتذوب في حفظها الأبدان بلا نفع، لأنها عطلت عن الامتثال، وفصلت عن الانتفاع بها، والتكاثر من الملهيات والمسليات والمغريات من شهوات ولذائذ وفنون

وهوايات لتصبح الحياة بهيمية ساقطة، والهم سالفة، والعمر أضحوكة، والبقايا مهزلة:

من يهن يسهل الهوان عليه

ما لجرح بميت إيلامُ

إن المسؤول الذي ألهاه التكاثر بالأوسمة والنياشين والألقاب لهو عابث يحفر لنفسه قبراً في عالم الخذلان والإحباط، وإن العالم الذي ألهاه التكاثر بجمع الغرائب، وحشد العجائب، والتطاول بمحصوله، والتباهي بمحفوظه، على حساب العمل لهو خاسر أشغله ذلك عن مرتبة الربانية، ودرجة الإمامة.

وإن الكاتب الذي ألهاه تكاثر نتاجه، وأشغله هذا السيلان، ونمو بريق الشهرة، وخدعه زخرف المديح لهو كاتب مخذول، إن من قدم الصورة على المضمون، والظاهر على النية والقصد، والدنيا عن الآخرة، والمخلوق على الخالق لهو عبد ضال سعيه وخائب منقلبه.

إن ركعة خاشعة من عابد صادق أجل من ألف رجعة لعبد ساه لاه عابث، إن قراءة آية بتدبر وتفهم خير من ختمة كاملة بلا حضور ولا تفكر، وإن مطالعة صفحة بإمعان أعظم من

سرد مجلدات مع شرود وذهول، وإن الحسن أحسن من الكثرة ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ وإن حوضاً من ماء عذب أنفع من بحر ماؤه مالح، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

OBEIKAN.COM

﴿هَيْتَ لَكَ﴾

تقول امرأة العزيز ليوسف عليه السلام: هيت لك، قال: معاذ الله. وكلمة هيت لك فيها من الجذب والإغراء والفتنة ما يقود النفس الأمارة للاستجابة، ولكن الله سلم وعصم ولطف.

ويا لمقام يوسف، وقوة يوسف، وصلابة عزيمته وجلالة نفسه يوم هزم هذا الإغراء الفاتن بالكلمة الطاهرة الخالدة: معاذ الله، ويا ليت كل مسلم إذا ماجت أمامه الفتن وتعرضت له الإغراءات أن يفزع إلى متن: معاذ الله، ليجد الحفظ والصون والرعاية، ويحتاج المسلم كل وقت إلى عبارة: معاذ الله، فكل الدنيا بزخرفها وزينتها تناديه: هيت لك، والمنصب ببريقه وطلائه يصيح: هيت لك، والمال بهالته وصولته يقول: هيت لك، والمرأة بدلالها وحسنها وسحرها تعرض نفسها وتصيح: هيت لك، فمن ليس عنده معاذ الله ماذا يصنع؟!

وإن الفتنة التي تعرّض لها يوسف لهي كبرى، وإن الإغراء الذي لقيه لهو عجيب، فهو ـ عليه السلام ـ شاب عزب غريب في الخلوة وفي أمن الناس؛ لأنها زوجة الملك، ثم هي مترفة متزينة ذات منصب وجمال وشرف ومال، وهي التي غلَّقت

الأبواب ودعته إلى نفسها فاستعصم، ورأى برهان ربه ونادى: معاذ الله، فكان الانتصار على النفس الأمارة والهوى الغلاب، فصار يوسف مثلاً لكل عبد غلب هواه، وخاف ربه، وحفظ كرامته، وصان عرضه.

ونحن في هذا العصر بأمس الحاجة إلى مبدأ: معاذ الله، فالمرأة السافرة، والشاشة الهابطة، والكلمة السافة، والمجلة الخليعة، والأغنية الماجنة؛ كلها تنادي هيت لك، وجليس السوء، والصاحب الشرير، وداعية الزور، وشاعر الفتنة؛ كلهم يصيحون هيت لك، فإن وفق الله وحصلت العناية، وحلت الرعاية صاح القلب صيحة الوحدانية: معاذ الله.

إبليس يغريني ونفسي والهوى

ما حيلتي في هذه أو ذاكا

ولنا في التاريخ المحفوظ مطالعة في سير الأبرار، فمنهم من تعرضت له السلطة، ومنهم من دعته الوزارة، وثالث طلبه المال، ورابع طاردته الشهوة، وآخر تعلقت به الدنيا، وكلهم فر وهو يقول: معاذ الله؛ فكان جزاؤه عوضاً أغلى، ومنزلاً أعلى، وعطاء أحلى، ورفعة عند ملك الملوك الذي ملكه لا يبلى، وخزائنه لا تنفد، وجاره لا يضام، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾

المنافقون يهتمون بالظاهر على حساب الباطن، أجسامهم روية، وقلوبهم خاوية، ظاهر مغري، وباطن مخزي، في العلن رجال وفي الخفاء خفافيش، ألسنة حالية ونفوس مريرة، فأول ما تشاهده منهم طلعات بهية، وهياكل قوية، وعضلات مفتولة، وسواعد مشدودة، شبع وسمن، ودعاوى عريضة، وتمدُّح أجوف، ولكنهم يحملون هماً ساقطاً، وعزائم منحطة، ونيات خبيثة، ومرادات قبيحة، مرض ينخر في قلوبهم، وشكّ يعصف بنفوسهم، وخواء يعشعش في ضمائرهم، أما ألسنتهم فهي أسواق لبضاعة الكذب، ومتاحف للزور والبهتان، وأما قلوبهم فأطلال باليه أقام بها النفاق، وحل بها الكفر، وملأها الرجس.

إن المسألة ليست بالصور والهندام وجمال الأشكال وبهاء الهياكل، ولكن المسألة مسألة قلوب تبصر النور، ونفوس تفيض بالخير، وسجايا تشع بالفضيلة.

إن من يرتاب في أمر الله، ويشك في دينه، ويعرض عن عبادته، ويحارب رسله، ويعادي أولياءه، ويسخر من عباده لهو

أولى الناس بالنبذ والإذلال والإهانة؛ لأنه خبيث النفس، خائن الضمير، ميت الإرادة.

إن هؤلاء الذين تعجبك أجسامهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، ولا يذكرون الله إلا قليلاً، ولا ينفقون إلا وهم كارهون، فهم أضعف شيء عن الطاعات، وفعل الصالحات، وأداء الواجبات، ولكنهم أقوياء في اقتطاف الشهوات، وتصيد اللذائذ، وركوب المعاصي.

إن الله لا ينظر إلى صورنا ولا إلى أجسامنا، ولكنه ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا، فلا يغرك جسم لا قلب فيه، وهيكل لا روح فيه، وجثمان ليس به حياة:

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم

جسم البغال وأحلام العصافير

وعلينا النظر إلى الحقائق ومعادن الناس وأخلاقهم وصفاتهم:

خذ بحد السيف واترك نصله

واعتبر فضل الفتى دون الحلل

إن الرجال لا يقومون بالثياب، وإن العظماء لا يقاسون بالأشبار، ولا يوزنون بالأرطال، ولكن قيمتهم عملهم الصالح، وقياسهم أخلاقهم الجميلة، ووزنهم تاريخهم المشرق.

إن شعرة في رأس عبدالله بن مسعود؛ الصحابي خير من مليون رجل من أمثال عبدالله بن أبي سلول؛ المنافق السمين البدين البطين، وإن ظفر بلال بن رباح أفضل من جيش من أمثال أبي جهل الضخم الفخم المريد الرعديد؛ لأن المسألة مسألة إيمان وفقه وصلاح وتقوى لا لحم ولا عظم ولا شحم ولا دم.

OBEIKAN.COM

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾

المطفّفون صنف من الناس يستوفون حقوقهم من الناس ولا يوفون الناس مالهم بل يبخسونهم، فحقوقهم على الناس وافية كاملة، وحقوق الناس عليهم ناقصة، إن كان الحكم لهم رضوا وقبلوا، وإن كان عليهم نفروا وأعرضوا، لهم مكيلان في الأحكام والأقضية والحقوق، فهم ومن أحبوه محقون دائماً، مبرؤن أبداً، أعراضهم محمية، وأشياؤهم محفوظة، وأموالهم محصنة، وسواهم مبطلون، متهمون، لا حق لهم ولا حفظ ولا رعاية.

إن كالوا أو وزنوا لأنفسهم فالزيادة لهم، وإن كالوا أو وزنوا لغيرهم فالنقص لسواهم، إن حكموا في قضية فالحق معهم، وإن حكموا على غيرهم ظلموا وجاروا، إن جادلوا في مسألة أي مسألة فالأدلة بزعمهم معهم، والبرهان أبداً يعضدهم، وأما من جادلوه دائماً فهو مبطل متعد لا دليل له ولا حجة.

إن كتبوا التاريخ والسير فالثناء لهم، والمدح ينهال عليهم وعلى أشياعهم، والسب والنقص لمن خالفهم، العالم المقصر إذا أحبوه فهو وحيد العصر وفريد الدهر، والعالم المتقن المحقق إذا كرهوه فهو ضعيف واهم، الخطيب الثقيل البارد من أصحابهم

مفوّه مصقع، والخطيب البارع الأعجوبة إذا خالفهم فهو ذو عيّ وبرود وسماجة، الشاعر الهزيل من شيعتهم فذ باقعة، والشاعر العبقري من أعدائهم متكلف متصنّع، إن أحبوا سلطاناً ظالماً فهو عندهم بركة العصر وريحانة الدنيا، وإن كرهوا سلطاناً عادلاً فهو الغاشم الظالم، أدلتهم صحيحة عند الاستدلال قاطعة عند التنازع ولو كانت باطلة داحضة، وأدلة من خالفهم أبداً ضعيفة ساقطة ولو كانت قوية محكمة، يرون سيئاتهم هم حسنات، ومناقب غيرهم مثالب، من مدحهم ولو بالباطل فهو صادق وبالحق ناطق، ومن نقدهم ولو بالحق فهو كذاب آثم.

إن أخطأ أحدهم فهو مأجور، وذنبه مغفور، وسعيه مشكور، وإن أصاب من خالفهم فهو مأزور لا معذور، الورد في بستان من أبغضوه شوك، والحنظل في حديقة من أحبوه ياسمين، إن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين، وإن يكن عليهم يتولوا عنه معرضين، يحكمون لأنفسهم قبل سماع الدعوى وعرض الحجة، ويحكمون على مَنْ سواهم قبل قيام البينة وحضور الشهود، حبيبهم إذا أخطأ قالوا: التمس لأخيك عذراً، وعدوهم إن أصاب قالوا: لن نستطيع عليه صبراً؛ ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾

لما أعرض أهل سبأ عن طاعة الله مزقهم كل ممزق، وقال: فجعلناهم أحاديث، وفي هذه العبارة من قوة الأسر وروعة البيان ما يهز النفس، فكأنه حوَّل هذه الأمة القوية إلى أحاديث فقط تدور في المجالس على ألسنة السمار.

لك أن تعمم هذا المثل على كل أمة سادت ثم بادت، أما أصبحت أقوالاً تدار في المجالس، أما ذهبت قوتها، وسحق جبروتها، ومات ملوكها، ولم يبق إلا مجرد الخبر عنهم فحسب، أين الدول؟! أين الملوك؟! أين الجيوش؟! ذهبوا ولم يبق من ميراثهم درهم ولا دينار، وإن بقي حديث عنهم تتناقله الرواة وتلوكه الألسن، ولكن أسلوب القرآن أرقى وأمتع، فإنه اكتفى بهذه العبارة التي يندهش من حسنها البلغاء، فلم يفصِّل في هلاكهم وكيف دمروا وماذا بقي من بيوتهم ومتاعهم، وإنما طوى الزمان والمكان، ثم أخبرنا أنه ما بقي منهم إلا الخبر عنهم، وإن حياة تنتهي إلى هذه الخاتمة لحقيق أن يزهد فيها، وأن يرغب عنها.

فبينما ترى الأمم دائبة في صنع وجودها ساعية في بناء حضارتها، وإذا بها هباء منثور ليس في الوجود منهم إلا كلمات

تخبر عنهم، وهنا قف أمام قدرة القوي القهار وهو يأخذ أعداءه هذا الأخذ في لمحة الطرف، ثم لم يُبق منهم باقية، ولم يترك لهم أثراً، ثم التفت إلى جمال عبارة القرآن وأسرارها، وسرح الطرف في هذا الحسن لترى الإعجاز في الإيجاز، والقوة في الأسر، والمتعة في التأثير، وانظر إلى الواقع، واسأل نفسك أين الحضارات التي ملأت الأرض، وأين الدول التي طبقت الدنيا، تعيش الدول ألف سنة ثم تنتهي فلا يبقى من آثارها إلا كلمات على شفاه السمار، وجمل على ألسنة الركبان:

أعندكم خبر عن أهل أندلس

فقد مضى بحديث القوم ركبان

اقرأ متن ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ على حضارة تَدْمُر ودمشق وبغداد والزهراء والحمراء وقرطبة وغرناطة، فإذا هي قاع صفصف، أين التيجان والسلطان والهيلمان: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، إن من يتدبر: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يعلم هوان الخليقة على الله، وتفاهة من حادَّ الله، وسخف من حاربه.

إن عدتهم وعتادهم وقوتهم لا تواجه من الله إلا بكلمة: كن؛ ليصبح الجميع أحاديث تتلى في النوادي، وقصصاً تساق في المجامع، فلا قصورهم حمتهم، ولا جيوشهم منعتهم، ولا أموالهم شفعت لهم.

﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾

الصبح آية من آيات الله دالة على بديع صنعه وجميل خلقه، فالصبح له طلعة بهية ووجه مشرق يشع بالجلال والحسن، ومن أراد أن يعرف جمال الصبح فليتأمل قدومه بعد صلاة الفجر كيف يدب دبيباً كالبرء في الجسم وكالماء في العود، فإن الصبح يزحف بعد جحفل من الظلام فيطويه أمامه، فكأن الكون وجه تتبلج أساريره، وتشرق قسماته، وترتسم على محياه بسماته، وما أجمل الصبح، فيه يهب النسيم العليل، ويشع النور الهادئ، والضوء الدافئ، وتبدو الحياة، ويميس الزهر، ويندى الظل، وتتفتح الأوراق، تفتح شفاه المحبين عن أسئلة حائرة، وتتفتق الأكمام تفتق عيون العاشقين عن أسرار دفينة.

في الصباح رجع الصدى، وقطر الندى، وحفيف الهواء، وتمتمة الماء، وتغريد الطيور، وسجع الحمام، وأنغام العندليب، في الصبح يرتحل الفلاح بمسحاته إلى الحقل، ويسوق البدوي أغنامه إلى المرعى، ويذهب الطالب إلى مدرسته، والطبيب إلى

عيادته، والبائع إلى حانوته، فالصبح أذان معلم بالحياة، وإعلان بيوم جديد، وملاذ مجيد، لنهار آخر من الجد والعمل والعطاء والنماء.

ولكن أما دعاك هذا اللفظ الشائق في قوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أما وقفت معه وقفة إجلال للإبداع واحترام للبيان؟ كيف يتنفس الصبح؟! سؤال يجيب عنه من قرأ حروف القدرة على صفحات الكائنات، والصبح يوم يتنفس كأنه محزون فقد أحبابه، فخرجت أنفاسه الحارة من أعماقه، أو كأنه مكبوت يشكو آلامه، فانبعثت من حشاياه آهاته، أو كأنه مظلوم صهر الظلم قلبه فانفجرت روح بزفراته، أو كأنه مسجون كبلت يداه وقيدت قدماه، فعبر بلهيب توجعه عن معاناته.

وما أجمل أسلوب القرآن، ففي كل ذرة من اللفظ درة، ومن يدري لعل الصبح تنفس بعد ليل طويل قاس من الظلام والهجر والقطيعة، ولعله تنفس تنفس المسرور بلقاء أحبابه، السعيد برؤية أصحابه؛ لأن الصبح مقبل عن نهار جميل، وحياة دائبة، وحركة نشيطة من الجد والبذل والتضحية، والمقصود أن هذا الصبح كان مكظوم الأنفاس، مكبوت

الحشى، ثم حانت لحظة الانطلاق فتنفس، وأنا أدعو سلاطين البلاغة ودهاقنة البيان وأرباب الفصاحة أن يقفوا خاشعين أمام: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ ليذوقوا لذة الجمال، ومتعة الحسن، ليعلموا سر الإعجاز، في هذا الكتاب المعجز الخالد، وليدخلوا ديوان عظمة الخالق، ديوان قدرته ليروا جمال المقال، وبديع الأفعال، من ذي الجلال والإكرام.

OBEIKAN.COM

﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾

لا تمدحوا أنفسكم فعلمها عند اللطيف الخبير، ولا تثنوا عليها فإن الناقد بصير، وما أجهل الإنسان إذا زكّى نفسه وشهد لها بالفضائل وبرأها من الرذائل، وما أثقل كلامه وهو يستعرض على ربه وعلى الناس مناقبه ويسوق محامده ويذكر حسناته.

إن الذي يزكي نفسه في محل التهمة وفي مقام الريبة؛ لأن الإنسان بطبعه ظلوم جهول، يحب نفسه ويعشق ذاته، ويعجب بصفاته، فإذا نمَّا هذا الطبع وأعلنه في الناس كان دليلاً على قلة تقواه وضحالة معرفته، وأي شيء عند الإنسان حتى يزكي نفسه وهو بين نعمة لم تشكر، أو ذنب لم يغفر، أو عثرة لم تظهر، أو زلة من ربه تستر؟

أفلا يكيفه أن الذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره قبل منه القليل، وغفر له الذنب الجليل، وأصلح خلله وستر زلله، ثم يأتي هذا الإنسان بدعاوى عريضة ونفس مريضة ليخبر ربه الذي يعلم السر وأخفى أنه ذو تقوى، والله أعلم بمن اتقى، فهو الذي لا تخفى عليه خافية.

وإن منطق الزور ولسان البهتان أوحى إلى إبليس اللعين بتزكية نفسه الشريرة ليقول لربه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ لتكون هذه التزكية لعنة ماحقة وضربة ساحقة لهذا المريد العنيد، وإن الشهادة الآثمة للنفس سولت لفرعون الطاغية ليقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ فأذله القوي العزيز، وأرغم أنفه في الطين.

وإن التزكية المفتراة دفعت بقارون الآثم ليتفوه بفرية: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ ألا فليصمت العبد الضعيف الهزيل، وليسكت المخلوق الفقير، وليخجل العبد المسكين من ربه، وليهضم نفسه، فلولا ستر الله لظهرت الفضائح، ولولا لطف الله لبدت القبائح، وإن من يتصدر النوادي ليخبر الناس بنسبه الأصيل لهو فاشل، ويحدثهم عن مجده الرفيع لهو أحمق، ويزكي لهم تقواه لهو مخدوع، ويذكرهم بمناقبه لهو مخذول.

لماذا لا يترك العبد تزكية نفسه لربه، فهو الذي يزكي من يشاء وقوله الحق؟!.

ولماذا لا يدع الإنسان أعماله تتحدث عنه لا أقواله، وإحسانه لا لسانه؟ وسوف يظهر زيف من مدح نفسه بالباطل،

OBEIKAN.COM

فالناس شهداء الله في الأرض، وألسنة الخلق أقلام الحق، وإن عبداً خلق من نطفة لجدير بأن يصمت، وإن مخلوقاً يحمل فضلاته لحقيق أن يسكت، ونعوذ بالله من لسان حي بالمديح، وقلب ميت بالقبيح، ومن عُجْب ظاهر، وذنب خفي.

فيامن أخفيت على الناس العيوب، وسترت عن العيون الذنوب، نسألك صلاح القلوب فإنك علام الغيوب.

OBEIKAN.COM

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

تحدث عن جميلنا، أخبر الناس بأيادينا، أعلن نعمنا عليك، لأن الجحود خطيئة والتنكر سيِّئة، وكتمان المعروف لؤم، إن الله يحب من عبده أن يشكره، وأن يثني عليه، وأن يعترف بما وصل من بره إليه؛ لأن الله يحب المدح، فهو أهل له، ويريد الحمد؛ لأنه مستحق له.

ونعم الله تغمر العبد، فإذا قابلها العبد بالحمد والثناء على مسديها، والمدح والشكر لمهديها بورك فيها، وإذا تنكر لها العبد وجحدها وكتمها محقت وذهب نفعها، والله يلوم الحاسدين من عباده فيقول: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ فهم يعلمون أن مانح النعمة هو الله، ولكنهم لؤماء يتنكرون للجميل، وينسون المعروف، وينسبون الفضل لغير أهله.

ورد في أثر: «**إن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها**»، فقال أبومعاذ الرازي معلقاً على الأثر: «يا عجباً ممن لا يرى محسناً إلا الله كيف لا يميل إليه بالكلية»، وقال بعض السلف: «ويحك يا ابن آدم والله لو كساك رجل ثوباً لرأيت إحسانه وعرفت جميله فكيف بمن كل نعمة وصلتك فمن

عنده، وكل خير لديك فمن لدنه» وقال المغيرة: «إن صاحب الكلب يحسن إلى كلبه فلا ينبحه ويحفظ له ودّه، فكيف بمن غمرك بنعمة»، وقالوا لعابد في البصرة: «كيف أصبحت؟» قال: «أصبحت في نعم غير مشكورة وذنوب غير منسية». وفي حديث حسن أنه ﷺ قال: «**سمع سامع بفضل الله ونعمته علينا**» وقال رجل لمالك بن دينار: «أشكو إليك ديوناً لحقتني وحاجة لزمتني، فقال مالك: ويلك كأنك تشكو الله إلى خلقه وله عندك نعم ما شكرتَ، وأياد طالما كفرت». وقال بعض الشعراء:

وإذا شكوت إلى العباد فإنما

تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

وقال الحسن البصري لفرقد السبخي: «تعال تغدى معنا من هذا الخبيص؛ وهو طعام لذيذ، فقال فرقد: أنا لا أكل الخبيص لأنني لا أدري شكره، فقال الحسن: قاتلك الله، وهل أديت شكر الماء البارد».

وكان بعض العباد ينادي: «سبحان من أعطى الجزيل، ووهب الجليل، ورضي بالقليل، وستر القبيح من العمل».

وقال رجل لأحد الوعاظ: «هل ترى لي شرب الماء البارد أو الحار؟ قال: اشرب البارد؛ لأنك إذا شربته أروى عروقك،

ودخل في مسام جسمك، فإذا قلت: الحمد لله حمد كل عضو وعرق فيك، وإذا شربت الماء الحار قلت: الحمد لله بكزازة، أي: بثقالة ومشقة».

وبالجملة فينبغي إظهار نعمة المنعم شريطة أن لا يكون من باب الزهو والرياء والعجب، مع ملاحظة عين الحاسد فإنها تصيب، وقد جعل الله لكل شيء قدراً.

OBEIKAN.COM

﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾

تعلموا العلم النافع، واعملوا العمل الصالح، وعلموا الناس الحكمة، واصبروا على الأذى في ذلك، فإذا فعلتم فأنتم ربانيون.

كونوا مصابيح الدجى، دعاة الهدى، الزاجرين عن الردى، الناشرين للفضيلة، الناهين عن الرذيلة، المصلحين في الأرض، المحبوبين في السماء، فإن فعلتم فأنتم ربانيون.

لقنوا الناس المعرفة وامحضوهم النصح، وعلموهم بالموعظة الحسنة، وحببوا إليهم ربهم، ورغبوهم في الآخرة، وزهدوهم في الدنيا حتى تكونوا حكماء علماء ربانيين.

تواضعوا للعباد، ارحموا الناس، أشفقوا على الخليقة، عودوا المريض، فكوا العاني، أطعموا الجائع، أعطوا الفقير، امنحوا المسكين، انجدوا الملهوف، انصروا المظلوم؛ فهذه أخلاق الربانيين.

وما أشرف وأجل كلمة ربانيين، إنها لكلمة كبيرة في القلب، كبيرة في الفم، كبيرة في السماء، كبيرة في الأرض،

OBEIKAN.COM

إنها نسبة إلى رب الناس، ورب كل شيء، وهو نسب أصيل رفيع، فمن استكمل صفات الربانية وجمعها ووفاها وقدّرها حق قدرها فهو رباني، ويكفي العلماء العالمين الصادقين أن يقال لأحدهم ربّاني؛ فهي أعظم سيرة محترمة لهذا العالم، وأجمل ترجمة خالدة لهذا الإمام، فلا ينسب إلى بلدة ولا قبيلة وإنما ينسب إلى الله رب العالمين: نسب باذخ ومجد عظيم.. وصفات أبهى من الإصباح.

أما الرباني، فقال بعض السلف عنه: هو الراغب في الآخرة الزاهد في الدنيا، وقيل: من إذا رأيته ذكرت الله وإذا عاشرته تعرفت على الرسول ﷺ، وقيل: من حبيك في الله، وحثك على تقواه، وبصرك الطريق، وردك عن الردى فهو رباني.

ولابد للرباني من إخلاص لا يشوبه رياء، وزهد لا يكدره طمع، وصدق لا يشوهه كذب، وسنة لا تعارضها بدعة، وعزيمة لا يوهنها ترخص، يخضع العقل للنقل، ويطوع الهوى للوحي.

إن من الواجب على طلاب العلم ورواد السنة وأتباع الرسول ﷺ أن يسعوا بكل ما أوتوا من قوة إلى مرتبة الربانية ودرجة الإمامة، ونيل شرف هذه النسبة، والله إن الرجل ليرفع

رأسه إذا نسبوه لملك من ملوك الأرض، وإن منهم من يفتخر إذا ألحقوه بوزير أو أمير، أو ذكروا أنه من سلالة شاعر أو جواد أو شجاع، فكيف ـ بالله ـ حال من نسب إلى مالك الملك قيوم السماوات والأرض رب العالمين، والله لو تقطعت الأقدام مشياً في رضوانه، وتخددت الوجوه من الدموع من خشيته، وتقرحت الأجفان من الدموع عند ذكره، لكان كل ذلك سهلاً يسيراً في سبيله جل في علاه.

OBEIKAN.COM

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

أخبر الله عن أوليائه الصادقين، وعباده الصالحين، بأنه يحبهم ويحبونه، وهو خبر تهش له نفس المؤمن، ويشتاق إليه قلب الولي، والعجيب قول: يحبهم فهو الذي خلقهم ورزقهم وأطعمهم وسقاهم وكفاهم وآواهم ثم أحبهم، وهو الذي رباهم وهداهم وعلمهم وألهمهم وأرشدهم ثم أحبهم، وهو الذي أنزل عليهم الكتاب، وأرسل إليهم الرسل، وبين لهم المحجة، وأوضح لهم الحجة، ثم أحبهم، فيا له من فضل عظيم، ومن عطاء جسيم.

أما قوله عنهم: ﴿يُحِبُّونَهُ﴾ فهذا عجيب أيضاً، فكيف لا يحبونه وقد أوجدهم من العدم، وأطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف، وكساهم من عري؟

كيف لا يحبونه وهو الذي وهب لهم الأسماع والأبصار، وحماهم من الأخطار، وحفظهم في سائر الأقطار؟

وكيف لا يحبونه وهو الذي وهب الأموال والأولاد، وأغدق عليهم الأرزاق، وساق إليهم كل ما يطلبونه ومنحهم، كل ما يسألونه، وأمنهم من كل ما يخافونه؟

كيف لا يحبونه وقد سخر لهم ما في البر والبحر، أرسل لهم السماء بالماء، وشق لهم الأرض بالنبات، وجعل الأرض لهم فراشاً وذلولاً ومهاداً، والسماء بناءً، ورزقهم من الطيبات، وأصناف الثمرات، ومختلف المطعومات، وسائر المشروبات؟

كيف لا يحبونه وهو الذي أنزل عليهم القرآن، وعلمهم البيان، وهداهم إلى الإيمان، وحذرهم من كيد الشيطان.

وما أجمل المقابلة بين قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ فهو حب بحب أزكى من حب الرب، فليت من له مقام في دنيا المحبين أن يتذوق هذه اللفظة المشرقة، وأن ينقلها رسالة قوية لعشاق الفن محبي العيون السود، والخدود والقدود؛ ليعلموا أن حبهم منقوص هابط، وحياتهم ذاوية ذابلة، وقلوبهم خاوية خربة، ونفوسهم ظالمة ظامئة، وبصائرهم كسيفة كليلة، أما حب أولياء الله فهو الحب الصادق الصائب الطيب الطاهر الزكي النافع.

والله، إن من أجل مطالب القلب السوي وصوله إلى رتبة ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

وإن من أعظم العطايا وأشرف المواهب لهي عطية وموهبة: يحبه ويحبونه، كل حب غير حب الله مقطوع، وكل عمل غير عمل الله ضائع، كل السعي لغير مرضاته باطل، كل

تعب في غير مرضاته عناء:

سهر العيون لغير وجهك ضائع

ورضى النفوس بغير حبك باطلُ

فيا من خلق خلقاً ثم رزقهم ثم هداهم ثم أحبهم أسألك أن تجعلنا من أحبابك، وخالص عبيدك، وصالحي أوليائك؛ فإنك أهل للإجابة، معروف بالإحسان، مقصود لكل مطلوب.

OBEIKAN.COM

﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

هذه آية الفرج ما قالها عبد مكروب إلا فرج الله عنه، بذلك صح الخبر، وفيها أسرار عظيمة ورسائل مهمة، لكن لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ففي هذه الآية إقرار بالتوحيد، وإثبات للتنزيه، واعتراف بالذنب، وهي أركان ثلاثة عليها تقوم العبودية وبها ينال ما عند الله من لطف ورحمة ورزق وهداية، ولهذا فرج الله عن يونس عليه السلام لما قالها، ويفرج عن كل من قالها من المؤمنين لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فركن التوحيد في: لا إله إلا الله، وركن تقديس الرب وتنزيهه في: سبحانك، وركن الاعتراف بالخطيئة في: إني كنت من الظالمين.

فلا إله إلا أنت، اعتراف بألوهيته سبحانه وكماله وتفرده بكل وصف حسن، وسبحانك نفي النقص والعيب عنه، إني كنت من الظالمين، اعتراف من العبد بالتقصير والخطأ.

فكأن العبد نسب كل مدح وجود إلى ربه ونزهه عن كل شين، وقدحٍ لا يليق به، ثم اعترف هذا العبد بظلمه وعدوانه

فكانت هذه الكلمة بحق من أغلى الكلمات وأثمنها في ميزان العبودية.

وما من عبد إلا وتمر به كارثة، أو يلم به خطب، أو تقع عليه شدة، فإذا قال هذه الكلمة بقلب حاضر خاشع مخبت أنقذه الله من كل ما أهمه، وفرج غمه، وأزال حزنه وكشف كربه.

والله عز وجل في كتبه وعلى ألسنة رسله أوجب توحيده على عباده، ونزه نفسه، وأخبر بظلم العبد وكفرانه وتمرده، فجاءت هذه الآية متضمنة هذه المعاني في أحسن وأجمل خطاب وأزهى حلّة، حتى إن بعض الصالحين كان يعكف بقلبه على هذه الكلمة ترداداً وتكراراً فيجد من الأنس والراحة والأمن والانشراح ما يفوق الوصف، وقد شرحها شيخ الإسلام؛ فأحسن وأجاد، ووردت في فضلها آثار، وكان يوصي بها الصالحون من أحبوا، ويكفي في فضلها قوله ﷺ: «**كلمة أخي ذي النون ما قالها مكروب إلا فرج الله عنه**».

فالواجب على العبد أن يعطي كل أصل من أصولها الثلاثة ما يستحق، فأصل القول اعتقاده، والعمل بمقتضاه والتبرءُ بما يضاده، وأصل التنزيه عدم نسبة المشابهة والمماثلة له سبحانه

بخلقه، أو وصفه بغير ما وصف به نفسه، أو تحوير كلامه والإلحاد في أسمائه وصفاته، وأصل الاعتراف بالاقتراف تحقير النفس، والنظر إليها بعين الازدراء والمقت، فإن هذا العمل يقطع من المسافات ـ أعني احتقار النفس ونفي العجب عنها ـ إلى الله ما لا يقطعه صيام الهواجر، وقيام الليال، وهذا مراد العبودية وبابها الأكبر وسرها الأعظم والله أعلم.

OBEIKAN.COM

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

الله واحد أحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله، لا يشبه المخلوق ولا يشبهه المخلوق، لا يماثله أحد، ولا يماثل هو أحداً، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، متفرد سبحانه فليس له سمي يسمى باسمه، ولا يحق لأحد أن يتصف بصفاته، ولا يصح لمخلوق أن ينازعه الألوهية، أو يساميه في الربوبية، أو يدعي لنفسه بعض صفات ربه جل في علاه، وإن أحسن وصف وأصدقه ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ.

فالواجب الوقوف على هذا، فإنه لا يعلم ما يستحق من التعظيم والتقديس والتنزيه إلا هو سبحانه، وأعلم الناس به من الخلق رسوله ومصطفاه ﷺ، فمن أخذ وصف الله أو الخبر عنه عن غير الكتاب والسنة فقد ضل سواء السبيل، وإنما أخطأ من أخطأ من الطوائف المبتدعة والفرق المنحرفة لأنهم تركوا الوحي وكلام المعصوم وحكموا عقولهم السخيفة وآراءهم الضعيفة في الغيبيات؛ فأتى كلامهم فجاً معوجاً مضطرباً.

وهدى الله أتباع رسول الله ﷺ إلى قول الحق واعتقاده، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

هذه الآية ترد على أهل التشبيه والتعطيل والتكييف والتمثيل من أشاعرة وماتوريديه ومعتزلة وجهمية، فهي ـ أي هذه الآية ـ تنفي عن الله كل وصف نفاه عن نفسه، وتثبت كل صفة جميلة أثبتها الله لنفسه أو رسوله ﷺ، ولما نفى المشابهة والمماثلة عاقب بإثبات صفة السمع والبصر له سبحانه، لأن النفي المحض ليس مدحاً بل ينفي النقص ويثبت له الكمال، فليس في النفي نقص وليس في الإثبات مشابهة أو مماثلة، بل في النفي تنزيه عن العيب، وفي الإثبات محجة بالجميل من الوصف، وهذه الآية هي عمدة أهل السنة في الرد على كل مبتدع ضال ومنحرف جاهل.

وانظر كيف عم النفي ليكون شاملاً، وذكر صفتين من المدح؛ لأن صفات مدحه كثيرة، ومنهج الوحي في وصف الله تعالى النفي المجمل إلا ما اقتضته الحاجة والإثبات المفصل إلا ما دعى إليه المقام فكل صفة لم يرد بها النقل مردودة، وكل مشابهة أو مماثلة في الصفة الواردة ممنوعة، وكل سلب للصفة الثابتة مرفوض؛ لأن أهل الضلال أقسام، منهم من سلب الخالق كل صفة؛ فجعله والجماد سواء، وهذا اعتداء،

ومنهم من وصف الخالق بصفات من عنده لم يأت بها النقل وهذا خطأ، ومنهم من أثبت البعض ونفى البعض وهذا تحكم مرفوض، ومنهم من أثبت وشبه فزل وضل، ومنهم من أثبت ومثل فجازف وجانب الصواب، وهدى الله أهل الحق إلى اتباع النقل والأثر، فأصابوا وأحسنوا والحمد لله رب العالمين.

OBEIKAN.COM

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

هذه من أعظم الدعوات إن لم تكن أعظمها، فإنها قد جمعت خيري الدنيا والآخرة، فحسنة الدنيا كل أمر مرغوب وكل خير مطلوب، من عافية، وأمن، ورغد في العيش، وصلاح في النفس، واستقامة في الأولاد، وموافقة من الزوجة مع سكن واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، مع صرف كل مكروه من فتنة ماحقة، ونازلة ساحقة، ومرض ومصيبة، وسوء خلق، وضعف ديانة، وقلة مراقبة، وعقوق ابن، وفساد زوجة، وشرور جيران، ونقد أصحاب، وضيق في المعيشة، وديون باهظة، وسمعة سيئة.

فحسنة الدنيا عامة شاملة، وأما حسنة الآخرة فأرفع ذلك الفوز برضوان الله ودخول جنته وجواره ومصاحبة أنبيائه ورسله وصالحي عباده في دار كرامته، والوقاية من عذاب النار وغضب الجبار، وما في ذلك المشهد من الخزي والعار، فصارت هذه الدعوة جامعة مانعة كافية شافية.

وفي الآية أوضح برهان على أنه لا يهب السعادة إلا الله عز وجل، ولا يجلب المحبوب ويصرف المرهوب إلا هو، فمن

أحسن فيما بينه وبين ربه كفاه ما أهمه وأضناه، وأصلح باله وأحسن حاله، ونجاه من أخذه الشديد وعذابه الأليم.

وفي الآية تعليم للعباد بأن يدعوا ربهم بجوامع الدعاء المشتمل على كل نفع، وعلى طلب دفع كل ضر، وأن العافية مع الشكر قد تفوق البلاء مع الصبر، وأن طلب السلامة من المصائب وارد، وأن خير الدنيا يطلب كما يطلب خير الآخرة؛ من متاع حسن ومال حلال، وطيب عيش، وحلاوة عمر، وفي الآية أن وقاية العبد من عذاب النار من أعظم ما يطلب من الله عز وجل، كيف وما أبكى الصالحين ولا أخاف الأولياء ولا أرَّقَ أهل الطاعة مثل تذكر عذاب النار؟! ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ وقال في حقيقة الفوز: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ وانظر إلى جمال كلمة حسنة في الموضعين، فإن كل أمر محبوب مرغوب؛ ولهذا فلا يقصر معناها على خير دون خير؛ لأن هذا تحكم إلا ما صح به الخبر، وما علمنا ربنا أن ندعوه إلا لأنه سوف يجيبنا إذا سألناه كما قال الشاعر:

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه

من جود كفك ما علمتني الطلبا

فقد أمرنا ربنا بالسؤال ووعدنا الإجابة، فليعلم تأثير الدعاء ونفعه العظيم ومردوده الكريم على العبد، وليقصد العبد إلى الدعاء بالمأثور الوارد في الكتاب والسنة، فهو المختار وهو الأصح للعبد؛ لأن الذي علَّمه العبد هو الذي يعلم السر وأخفى.

OBEIKAN.COM

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

الحياة الطيبة تنال بأمرين: الإيمان والعمل الصالح، فمن آمن وعمل صالحاً نال مرتين حياة سعيدة رغيدة، وجزاءً كريمًا موفوراً في الآخرة.

ولكن كلمة: ﴿ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ عجيبة، فإن فيها من الجمال والعموم ما تهش له النفس، فكل أمن وسكينة وسرور وحبور وصحة وأمن وأنس وطمأنينة مع صلاح الأبناء واستقامة الحال وحسن المنقلب والعافية من كل مكروه؛ فإنها كلها من الحياة الطيبة، فمن أراد حياة طيبة بلا إيمان ولا عمل صالح فقد حاول المستحيل، وطلب الممنوع.

وكيف ينال الحياة الطيبة من أساء المعاملة مع ربه الذي منه وحده تنال الحياة الطيبة، فإن كل خير وصلاح أساسه التقوى، وإن كل شر وبلاء سببه المعاصي والآثام، وهذا معلوم من نص الشرع، قال سبحانه: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ وقال: ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾

وقال: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ فمن حقق الأصلين وهما الإيمان والعمل الصالح سعد في الدارين وأفلح في الدنيا والآخرة، وما أروع القسم في قوله جل في علاه: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ﴾، فهذا وعد أكيد وخبر جازم وبشرى محققة.

وانظر إلى قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ﴾، ما أحسن اختيارها، فالذي لا يحييه الله كأنه ميت ولو عاش، وهالك ولو عمَّر، وفي كلمة نحيينه من الجاذبية والأسرار والتشويق لهذه الحياة ما يأخذ اللب ويأسر القلب، وانظر كيف نكَّر الحياة لتكون عامة كاملة، وهذا تنكير تعظيم، وتحت كلمة حياة من الأسرار والمعاني ما يفوق الوصف، فإن هذه الحياة تشمل حياة القلب بالإيمان والهدى، فلا يموت أبداً يوم تموت القلوب، وحياة العقل بحسن الإدراك وصواب البصيرة وسداد الرأي، وحياة الجسم بالعافية وحسن المعيشة، والسلامة من الآفات والنجاة من الكدر، والأمن من المتالف.

أقسم وهو أصدق القائلين على أنه سوف يجزيهم بأحسن منه، ولم يقل بحسن أو بخير أو بجميل، بل قال بأحسن؛ لأن في العمل حسن وأحسن، فالله يجزيهم بأحسن عمل عملوه، وتقاس بقية الأعمال على أحسنها، فيثاب على أحسن صلاة

صلاها في حياته، وتساوى بها بقية الصلوات، وهكذا سائر الأعمال، وهذا من كرمه وجوده وتفضله جل في علاه.

ثم انظر إلى الجمع في الآية بين الذكر والأنثى فيمن يعمل، والإيمان والعمل الصالح في العمل، والحياة الطيبة والأجر الأحسن في الثواب، فهي اثنان من أصناف ثلاثة، فذكر الذكر والأنثى؛ ليعلم الجنس، والإيمان والعمل الصالح يشمل أصول العمل والحياة الطيبة، والأجر العظيم يستغرق كرامة الله لعباده.

OBEIKAN.COM

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

تطمئن القلوب من خوفها فتسكن إلى موعود ربها مع الثقة به، وحسن التوكل عليه، وصدق اللجوء إليه.

وتطمئن من حزنها فتجد الأمن من كل غم وهم وحزن، فتعيش راضية مرضية؛ لأنها بربها ومولاها راضية.

وتطمئن من قلقها فتستقر بعد التذبذب، وتهدأ بعد التمزق، وتثبت بعد الاضطراب.

وتطمئن من الشتات، فيجتمع شملها، ويتحد توجهها، ويلم شعثها، وتنجو من شتات أمرها.

وتطمئن من كيد شيطانها، وغلبة هواها، وتحرش أعدائها، وكيد خصومها، وشرور أضدادها.

فليس للقلب دواء أنفع من ذكر الله، فمهما حصل القلب على مطلوبه ورغباته بدون ذكر الله فإن مصيره القلق والتمزق والفرق والخوف والغم والهم والحزن والكدر والاضطراب.

أبى الله أن يؤمِّن من عصاه، وأن يؤنس من خالفه، واتبع هواه، وكيف يطمئن من بينه وبين الله وحشة، وبينه وبين خالقه

قطيعة، وكيف يأنس من نسي مولاه، وأعرض عن كتابه، وأهمل أوامره، وتعدى حدوده.

إن طمأنينة القلب هي السعادة التي يسعى لها الكل، ويبحث عنها الجميع، فمنهم من خطبها عن طريق المال فجمع وأوعى، وحصل وكنز، فإذا المال بلا إيمان شقاء وإذا الحطام بلا طاعة وباء، ومنهم من طلب السعادة عن طريق المنصب فصب من أجله دمعه وعرقه ودمه، فلما تولاه بلا إيمان كان فيه حتفه وهلاكه وخيبته، ومنهم من طلبها عن طريق اللهو من غناء وشعر وهواية فما حصل عليها ولا نالها، لأنه عزلها عن عبودية ربّه عز وجل.

فيا من تكاتفت سحب همومه اذكر الله لتسعد، ويا من أحاط به حزنه وأقلقه همه اذكر الله لتأنس، ويا من طوقه كربه وزلزله خطبه اذكر الله لتأمن، ويا من تشتت قلبه وذهب لبه اذكر الله لتهدأ، ذكر الله دواء وشفاء وهناء، وذكر غيره داء ووباء وشقاء، ويكفي الذكر فضلاً أن الله يذكر من ذكره، ويكفي الذكر شرفاً أنه العلم الوحيد الذي يبقى مع أهل الجنة، ويكفي الذكر أجراً أنه أفضل عمل، الذكر حياة ولكن المبنّج لا يحس، والمخدر لا يشعر، والميت لا يتألم، والذكر سعادة ولكن المعرض مخذول، والناسي خائب، والمضطجع

خاسر، والذكر أمن وسكينة ولكن العاصي مفرط، والفاجر هالك.

وفي كلمة ﴿تَطْمَئِنُّ﴾ رخاء ونداء وطلاوة، فكأن القلوب كالأرض، فما سهل منها فهو المطمئن، وما صعب وشق فهو القاسي الموحش المقفر، فليت سحب الرضوان وغمام الرحمان تترك غيث الوحي على القلوب لتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها من الذكر والشكر والإنابة والمحبة والرهبة والرغبة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

OBEIKAN.COM

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾

يغرس لعباده الصالحين في القلوب محبة وودّاً فيسري حبهم في الأرواح، وتنطلق الألسنة بالثناء عليهم، ويوضع لهم القبول في الأرض، ومالك الحب هو الله، ومفاتيح القلوب بيد الله، فإذا فتحها لمحبة عبد وجدت محبته وحملت مودته، إن حب الخليقة الصالحة دليل على حب الخالق جل في علاه، وإن القبول في الأرض دليل على القبول في السماء، والناس شهداء لله كما صح به الحديث، فمن أحبوه وودوه وأثنوا عليه خيرًا فهو خير بار راشد، ومن كرهوه ومقتوه وأبغضوه فهو شرير خاسر.

إن القلوب خزائن الرحمن، وإن ألسنة الخلق أقلام الحق، وإن المؤمنين شهود عدول على من أحبوه أو أبغضوه، إن لمحبة الناس أسباباً، ليحبوا من أحبوه كصدق إيمانه بربه، وطهارة باطنه، ونقاء نفسه، وسلامة صدره، وقوة إخلاصه.

وإن لبغض الناس أسباباً ليبغضوا من أبغضوه: من نفاقه وفجوره واستهتاره بحدود الله، وتنكره لدين ربه، وظلمه وجوره، وسواد قلبه، وفساد روحه، وخسة طبعه.

إن من يملك الأبدان لا يملك القلوب، وإن من تنافقه الألسن قد لا تحبه الأرواح، إن السوط والسيف والهيبة لا تجلب حباً ولا تدفع كرهاً، وإنما الجالب للمحبة والدافع للبغض رب العالمين، محبة العباد لا تشترى بالدرهم والدينار، ولا تعرض في الأسواق، ولا ينادى عليها في المحافل، إنها نعمة يهبها الله من يشاء من عباده، فتجد هؤلاء المحبوبين محفوفين بالمحبة، مستقبلين بالمودة، مغمورين بالثناء الحسن، إن حضروا حيتهم القلوب، وإن سافروا شيعتهم الأرواح، فلهم مساكن في نفوس العباد، ومنازل في قلوب الخلق، رحمة من ربك ولطفاً من إلهك، صح في الحديث: «**إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال له: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً قال لجبريل: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فابغضوه، ثم يوضع له البغض في الأرض**».

OBEIKAN.COM

إذاً فالحب والبغض من عند الله، فمن أراد محبة في قلوب الخلق ومودة عند المؤمنين فليطلبها ممن يملكها، جل في علاه، بطاعته والإذعان لأمره، واتباع رسوله، والاهتداء بهدايته، وصدق النصح لعباده، وسلامة النية، وحسن الطوية، وطهر الضمير، حينها فليبشر بحب الله له ومودة المؤمنين.

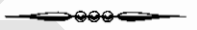

OBEIKAN.COM

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾

عن ماذا يتساءل هؤلاء الناس ولماذا هم مختلفون؟! إنهم يتساءلون عن اليوم الآخر الذي ما سمع الناس بمثله وما طرق العالم شبيهه، وهؤلاء الكفار المختلفون لهم أقوال فيه، ولكنه والله نبأ عظيم، وخبر ضخم، وقصة كبرى، كيف لا يكون نبأً عظيماً وفيه يتنزل الملك الجبار لفصل القضاء، وفيه تتطاير الصحف، ويوضع الميزان، ويمد الصراط، وفيه تكور الشمس وتكدّر النجوم، وتسجّر البحور، وتسيّر الجبال، وتحشر الوحوش، وتعطل العشار، وتخرج النفوس، وتضع كل ذات حمل حملها، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد.

والله سمى زلزلة الساعة شيئاً عظيماً، فلا أعظم ولا أدهى ولا أشد منه، فمثل لنفسك تلك المشاهد والصور والمواقف التي تجعل الولدان شيباً، وحضر قلبك لهذا المقام العظيم الذي سوف تعيشه لحظة بلحظة، وتراه رأي العين، فلا فدية ولا خلة ولا شفاعة إلا لمن استحقها، واستشعر هول ما سوف تشاهده وفظاعة ما تراه، فإن الرسل يُسألون ماذا

أجبتم؟ قالوا: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب؛ فكأنهم نسوا ماذا قال لهم قومهم من هول المقام وفظاعة الموقف.

وتذكر يوم يطلب الوالد من ابنه ـ وقد رباه وغذاه وكساه ـ حسنة واحدة فيأبى ويمتنع، ويقول: نفسي نفسي، وتأتي الأم لوحيدها وتطلب من وليدها، وقد حملته وأرضعته وتعاهدته، تطلب منه حسنة فيبخل بها على أمه وينادي: نفسي، نفسي، وتفكر في موقف كل رسول وهو، معصوم من الذنب، مقبول عند الرب، يصيح: نفسي نفسي، ذلك اليوم عسير، والخطب صعب، والحادث جلل، والمشهد مذهل، والوصف يقصر، والبيان يعجز، واللسان يتلعثم، والذاكرة تخون، ومن أراد معرفة ذاك اليوم فليطالع بقلب مخبت منيب تائب ما ذكر الله عنه في كتابه، وما وصفه رسول الله ﷺ بعد أن يخرج هذا العبد من قلبه كل شبهة تحجب الدليل، وكل شهوة تمنع الاعتبار، فإن العجماوات تصيح من هول يوم القيامة، وإن الجبال تنسف لذلك اليوم، وإن الأرض تميد، وإن السماء تنشق، وإن القبور تبعثر، وكل شيء يغير فاللهم سلم سلم، فإليك المشتكى، وعليك التكلان، وبك المستعان، وأنت المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾

بذنوب العباد فسد الهواء، بخطايا الناس تكدر الماء، بسيئات بني آدم تعطلت الأرزاق، كان آدم في الجنة فأكل من الشجرة، وأهبط إلى الأرض لتبدأ رحلة الصراع بين الخير والشر والحق والباطل، ولقد كانت الأرض طاهرة حتى لوثها قابيل بدم هابيل، وكانت الدنيا تستفيق على صوت التوحيد حتى أزعجتها أصوات الإلحاد من الحمقى الأنذال الذين يقول أحدهم: أنا أحيي وأميت إلى آخر تلك القائمة الزائفة الشوهاء من هؤلاء الرقعاء السخفاء، فكل خراب في العالم أساسه ظلم العباد، وكل دمار في الكون سببه جور الناس على حد قول أبي طالب:

كلما أنبت الزمان قناة

ركب المرء في القناة سنانا

إن خطايا الخلق تظهر في عقوبات الإله، يجدها الإنسان في الكون من احتباس القطر، وهوج الريح، وقصف الرعد، وهيجان البحر، وغلاء الأسعار، وجور الحكام، وظلم القضاة، وشح الموارد، وجدب الديار، وفساد الثمار، وذبول الأشجار،

وتعكير الجو؛ لأن الذنب مشؤوم، والخطيئة عقيمة، والسيئة قاتلة.

كيف تصلح الأرض وقد أُغضب من في السماء، كيف يسعد المخلوق وقد خالف الخالق، كيف تقوم للناس حياة وواهب الحياة سبحانه يعصى ويتجاهل أمره.

إن سنة الله في الدول والشعوب والناس لا تتبدل، فمع العدل والتقوى يسعد الناس، وتدور الأرزاق، وتتوفر الأقوات، وتقوم الأسواق، وتسكن الفتن، ويعم الأمن، ومع الظلم والمعاصي يحصل الخلل في كل شأن من شؤون الحياة، كما تقدم.

فانظر إلى عصر رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين، فإنها الفترة الزمنية الزاهية الذهبية في حياتنا، إنها غرة في جبين الدهر، ودرة في تاج الزمان، وبدر في ليل العالم لما حصل في زمنهم من عزة للدين، وطاعة لرب العالمين، وقيام بكل ما يرضي الله من قول وعمل واعتقاد.

ثم انظر إلى عصر الحجاج وأبي مسلم الخرساني والفاطميين والإسماعيلية، وكل ظالم وزنديق ومارق وعدو لله، كيف سفكت الدماء، وهتكت الأعراض، ونهبت الأموال، وسلب

الآمن، وضاعت الأمة، وعمت الفتنة، وتفاقم الحال، وساءت المعيشة، وعمت البغضاء، وانتشر التقاطع، وظهر الخلاف، وبرز الشقاق، وبزغت البدع، وتوارى العدل، وغرب الفلاح وما ربك بظلام للعبيد.

OBEIKAN.COM

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

من النفس يبدأ التغيير، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، البداية من داخل العبد، من صلح حاله بقيت نعمته، ودامت عافيته، واستمر الهدى معه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ومن فسد وأعرض حلت به النقمة، وأدبرت عنه النعمة، ونزل به الشقاء: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

من أراد ما عند الله من العناية والكفاية والهداية فعليه أن يشرح صدره للحق الذي بعث به محمد ﷺ، ويتقبله بقبول حسن، ويجاهد في الله حق جهاده، كما هي تمام النصح لله والرسول وللمؤمنين، مع سلامة الباطن، والتقيد بتعاليم الشرع، وصدق الهجرة إلى الله، بتوحيده وشكره وذكره وطاعته، ومن تعرض لمقت الله وغضبه بتعطيل أمره، وتفريغ نصوص وحيه من محتواها، والإدبار عن التقوى، والانحراف عن الجادة، والزيغ عن الحق، والتفلت على حدود الله، فليبشر بعذاب واصب، ونكد حاضر، وشقاء لازم وهم دائم؛ جزاء تنكره للحقيقة؛ وشططه في سلوك الطريقة، وبغيه وعدوانه ولا يظلم ربك أحداً.

هل يظن العبد أن الهداية سوف تطرق عليه بابه وتسأل عنه في مضجعه، كلا فالهداية يُبحث عنها في مظانها في كتاب الله المشرق المغدق النير، في السنة المطهرة النقية المباركة، في الصف الأول من بيوت الله حيث النفحات هناك والعناية واللطف، في خلع أسمال الباطل، في التبرء من المعتقدات الخاطئة، والشبهات المهلكة، والشهوات القاتلة، في العكوف على الوحي كتاباً وسنةً ومدارسةً وفهماً وتدبراً وعملاً ودعوةً وجهاداً.

إن سلعة الله غالية لا يعرضها الباعة في أسواقهم، ولا ينادي عليها التجار في متاجرهم، إنها أغلى وأعلى من هذا الامتهان، إنها ثمينة يستاهلها من طلبها وحرص عليها وجاهد من أجلها، وبذل الغالي والرخيص لينالها، ودفع نومه وعرقه ودمعه ودمه وروحه ثمناً لها، حينها سوف تزف له أجمل ما تكون في أبهى حُلل وأزهى لباس وأعظم تاج.

لما غيّر بلال بن رباح العبد الفقير نفسه واستقبل الهدى؛ تُوج بتاج مؤذن الإسلام، وصاحب الرسول ﷺ، وضيف الرحمن في الفردوس.

ولما غيّر أبو جهل الوجيه المشهور ما في نفسه، وقلب بصيرته، وانسلخ من فطرته؛ أُهين وأُرغم أنفه، وذاق المذلة، وأدركه الخزي عاجلاً وآجلاً.

إن على العبد أن يبدأ هو برحلة النجاة وهجرة الإنقاذ، ويركب في سفينة الحق لئلا يدركه طوفان الغضب فيغرق مع من غرق من المردة الملعونين.

OBEIKAN.COM

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم من المعتقدات والأقوال والأفعال والأحوال والأخلاق والآداب والسير، فهو يدل على الأكمل والأحسن دائماً، فكلما اشتبهت الأمور واختلطت الآراء وماجت القلوب، جاء القرآن بهداه وسناه، فهدى إلى الأرشد، ودل على الأتقى والأسمى.

لماذا القرآن وحده يهدي للتي هي أقوم؛ لأنه من فوق، وكتب البشر من تحت، ولأنه من السماء، ومذكرات العبيد من الأرض، ولأنه من رب العالمين، أما هي فمن الطين، ولأنه من عند الله، وآراؤهم من أفكارهم المضطربة وقلوبهم الزائغة، فالذي أنزل القرآن هو الخالق، والذي صنف ما يعارضه مخلوق. وعظمة القرآن في أن من تكلم به أحكم الحاكمين، وأحسن الخالقين، وخالق الناس أجمعين، فكيف لا يكون كلامه فوق كل كلام، وهداه أعظم من كل هدى؛ لأنه عليم خبير بصير، ومن سواه جاهل غبي إلا من اهتدى بهداه، فبقدر اهتداء العبد بهذا النور يحصل له من سداد الرأي ونور البصيرة على قدر ما بذل وطلب واستفاد.

فالقرآن يهدي للتي هي أقوم في المعتقدات، فهو يدعو للتوحيد الصحيح، والدين الخالص، والعبادة المعتدلة، وهو يهدي للتي هي أقوم في الحكم، من حيث العدل والإنصاف، ومراعاة الحقوق، والبعد عن الظلم والهضم والقهر والاستبداد ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ وهو يهدي للتي هي أقوم في الأخلاق؛ فهو يدعو إلى طهر الضمير، وزكاء النفس، وسلامة الصدر، ونقاء اللسان، وعفاف الخلق، ومكارم الصفات، وأشرف الآداب: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

وهو يهدي للتي هي أقوم في البيع والشراء، وسائر العقود، وكافة المنافع، فلا غش ولا غرر ولا نجش ولا ربا ولا حيلة ولا خديعة ولا غبن ولا تدليس ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾.

وهو يهدي للتي هي أقوم في المعيشة والكسب والإنفاق والبذل، فلا إسراف ولا تقتير، ولا بذخ ولا شح ولا إمساك ولا تضييع ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾.

وهو يهدي للتي هي أقوم في الدعوة والإصلاح والتربية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا غلظة ولا فظاظة ولا

مداهنة ولا تمييع، بل حكمة ولين ورفق ورشد وهدى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

وهو يهدي للتي هي أقوم في الآداب والفنون، فلا تعد على الحدود، ولا استخفاف بالقيم، ولا تلاعب بالمبادئ ولا جفاف وجمود وجحود ورهبانية، وإنما جمال باحتشام، ومتعة بأدب، وذوق بعفاف، وحسن بالتزام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾.

OBEIKAN.COM

﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾

واجب على من أقبل على الدين أن يقبل عليه بهمة وحرص، وأن يبذل جهده في التمسك به وحمله بأمانة وإن تلقى الأمر بكسل وبرود برهان على موت الهمة ودناءة النفس، إن الضعيف مضطهد، وإن القيام بشعائر الدين على صورة من الترهل والهزال؛ دليل قائم على عدم المحبة والاقتناع.

إن الصلاة المقبولة تحتاج إلى قوة في حضور القلب وخشوعه، واستحضار النية، ومحاربة الوسوسة وواردات النفس، وإن التلاوة الصحيحة تحتاج إلى قوة من حيث حسن التدبر وجميل التأثر ومدافعة الشرود، وإن الدعوة إلى الله تحتاج إلى قوة في جمال العرض، وبلاغة الوعظ، والإبداع في الخطاب، والصدق في النصيحة: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

إن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف؛ لأن المؤمن القوي قوة للدين، وهيبة للملة، فعطاؤه أكثر، ونفعه أوفر. الكلمة القوية تهز القلب، وتهش لها النفس، وتؤتي أكلها

مـن الاستجـابة والمتابعة، وإن الحجـة القـوية تدفـع الباطـل وتدحض الشبـهـة، وإن القـصـيـدة القـوية تسـري بين الناس، وتنـال القـبـول والحظوة، وإن الكتـاب القـوي يكسب الخلود والذيـوع، والانتشار.

القوي يصمد في الأزمات ويثبت في المصائب، ويدافع عن مبـادئه وينتـصـر لدينه، والضـعـيف يغلب عند أقل الحـوادث، وينهـار في مـيـدان الكفاح، فـيـؤتى الإسـلام من قـبله، ويدخل العدو من بوابته.

شبـهـة لا تردها قـوة يقين تصبـح كفراً، وإلحـاد لا يردعه إيمان يصير ديناً للمنحرفين، وشهوة لا يدمغها قوة صبر تحول العبد إلى بهيمة وكسل.

ماذا ينفعنا مؤمن ضعيف كسول خامل؟ وماذا يجدي علينا جيل بائس محطم غارق في الشهوات؟ وهل يصنع النصر على أيدي جبناء أغـبيـاء، وهل يصـاغ النجـاح بأمـاني كاذبة، ووعود خائبة، وظنون خداعة.

إن صلاة الفجر لا تدرك إلا بعزيمة ونشـاط، وإلا انهزمت النفس تحت مطارق النـوم والراحـــة؛ ولذلك صح أنه ﷺ إذا

سمع الصارخ وثب للصلاة ليلاً، بلفظ وثب لتعي مدلولها وسرها.

لقد استعاذ عليه الصلاة والسلام من العجز والكسل، فالعجز في الإرادة، والكسل في الحركة، وهما مصدر كل فشل وإخفاق، إن الله ثبط المنافقين لأنهم لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ونصر الله المجاهدين؛ لأنهم صبروا وثبتوا وتقدموا، وهذه سنة مطردة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

يقول عمر بن الخطاب فاروق الإسلام: (اللهم إني أعوذ بك من جلد الفاجر وعجز الثقة)، ففاجر مصابر وتقي منهار مصيبة؛ لأن الفاجر الفاتك النشيط شيطان مريد، والتقي الخامل العاجز المقصر؛ جبان رعديد، والإسلام يريد رجلاً قوياً حازماً بصيراً:

لا يدرك المجد إلا سيد فطن

لما يشق على السادات فعال

لا خامل جهلت كفاه ما بذلت

ولا جبان بغير السيف سأَلُ

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر والإقدام قتالُ

نريد عالماً ربانياً قوياً؛ لأن الضعيف يغلبه الوهم وينتصر عليه الظن، ولا يؤدي الأمانة كما هي، ونريد فقيهاً قوياً لأن الضعيف لا تمييز عنده، ولا برهان لديه، ولا فرقان يحمله.

ونريد مجاهداً قوياً؛ لأن الضعيف مسحوق مخذول يؤتى الإسلام من قبله، فإذا اجتمع في العبد قوة وأمانة وتقوى وعزيمة ومراقبة وصرامة فهو الرجل حقاً: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾.

OBEIKAN.COM

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾

تعظون الناس ولا تتعظون، تنصحون الناس ولا تنتصحون، تأمرون بالمعروف ولا تأتونه، وتنهون عن المنكر وترتكبونه، قولكم جميل، وفعلكم قبيح، النطق حسن، والفعل سيئ، تزكون الناس بكلامكم وأنفسكم مقفرة من البر، موحشة من الهدى، يستنير الناس بوعظكم الخلاب ونصحكم الجذاب، وأنتم في ظلمة المعصية واقفون، وفي ليل الخطايا حائرون، إن من أعظم النكبات على دين الله إخفاق حملته ودعاته في العمل بتعاليمه، حينها يصبح فعل هؤلاء حجة قاطعة لكل مارق، وبينة واضحة لكل منافق يرتكب المعصية، بدليل فعل هؤلاء السيئ، وترك الطاعة بدليل عمل هؤلاء الخاطئ، فلا يثق الجهلة بنصوص الشرع، لأن أناساً ممن يحملون هذه النصوص عطلوا العمل بها والاهتداء بهديها والانتفاع ببركتها.

الطبيب إذا تناول السم أمام المريض كيف يثق فيه المريض أو ينتفع بدوائه وعلاجه؟

وغير تقي يأمر الناس بالتقى

طبيب يداوي الناس وهو عليل

الخياط إذا مزق الثوب فقد مصداقيته في الخياطة، النجار إذا كسر الباب خسر ثقة الناس في معرفته وحذقته، والدعاة إلى الحق والفضيلة إذا أهملوها وهجروها غسلت الأمة أيديها منهم، يصبح كلامهم الرنان رماداً تذروه الرياح، يصبح وعظهم البليغ عهنًا منفوشاً، تصبح كتاباتهم وتآليفهم ركاماً من الزيف والغش والبهرجة.

وحملة الرسالة بالذات أمناء على الملة، أوصياء على الجيل، حفاظ للمبادئ، فأي عثرة منهم ثلم في جدار الشريعة، وجرح في جسم الديانة.

إن الربانية في العلم والدعوة ليست عمائم كالأبراج، والأكمام كالإخراج، والفتاوى معلبة جاهزة ترضي أهل الشأن، ويكسب من ورائها الدرهم والدينار، والمنصب والعقار «**يؤتى بالرجل فيدور في النار فتندلق أقتابه كما يدور الحمار برحاه، فيقول أهل النار: مالك يا فلان، ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر، قال: بلى، كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**» هكذا وصف المعصوم ﷺ هذه الفئة ومصيرها عند الله عز وجل، وأحد الثلاثة الذين تسعر بهم النار يوم القيامة، قارئ قرأ القرآن ولم يعمل به.

إن حفظ المتون، وجمع الفنون، وإلقاء الخطب الرنانة، والجلجلة بالمواعظ الطنانة، سهل يسير، يجيده الجمع الغفير، ويقوم به الكثير، لكن تطبيق هذه التعاليم والعمل بها، وتنفيذ أوامرها، واجتناب نواهيها، والصدق في حملها، ومراقبة الله في دلالتها أمر شاق صعب متعب لا يقوم به إلا ربانيون طهرت أرواحهم، زكت ضمائرهم، نبلت أخلاقهم، حسنت سيرتهم، وصفت سريرتهم:

يا أيها الرجل المعلم غيره

هلا لنفسك كان ذا التعليم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها

فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

يا أيها الدعاة إلى المبادئ المقدسة، يا حملة الرسالة ويا أمناء الكلمة، لم تقولون ما لا تفعلون؟! فقهاء في القول، جهلة في الفعل، أولياء على المنبر، عتاة في الميادين.

إن دمعة من خاشع أصدق من مائة خطبة من واعظ، وإن قطرة من شهيد أبلغ من مائة قصيدة حماسية من شاعر، وإن غضبة لله من عالم أوقع في القلوب من مائة درس في النهي عن المنكر.

إن أعظم ما يفعله صاحب الدعوة أن يكون سراجاً وهاجاً بعمله وصدقه وإخلاصه وخلقه، إن فرعون قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ويشهد الله أنه كاذب خبيث ماكر، والمنافقون قالوا: نشهد إنك لرسول الله، فقال الله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ والرعديد الجبان يقول في غزوة تبوك: «ائذن لي ولا تفتني» أي أخشى على نفسي الفتنة إذا غزوت الروم من فتنة النساء، فيقول الله: ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.

إن مصيبة أحبار اليهود ومن شابههم من هذه الأمة أنهم تعجلوا ثواب علمهم في دنياهم الفانية الزهيدة، أرضوا الناس بسخط الله فطوعوا النصوص لشهواتهم، ولووا أعناق الأدلة لأهوائهم، إن خدم الدليل مقاصدهم فهو ثابت محكم صريح، وإن عارض الدليل أغراضهم فهو محتمل مؤول له وجوه وله معان أخرى، إن وقعوا في ملذات الدنيا استدلوا بقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ إن تركوا الأمر والنهي والقيام لله ذكروا الحكمة والرفق واللين، إن سعوا للمناصب والجاه أوردوا قول يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ

عَلِيمٌ﴾ والله عز وجل لا يلعب عليه كما يلعب على الصبيان، ولا يخادع كما يخادع الولدان، فهو العالم بالسرائر، المطلع على ما في الضمائر، العليم بالنيات، الخبير بالخفيات: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

ويلكم من الله: معكم كتاب من الله فيه الهدى والنور وأنتم تعلمون ما فيه فهلا زجركم علمكم بالكتاب عن فعلكم المشين؟! هلا أثر فيكم هذا الكتاب الذي تدرسونه لأن العالم بحجة الله ليس كالجاهل بها، والمطلع على شرع الله ليس كالغافل عنه.

إن العلماء إذا أعرضوا وفسدوا كانوا أكثر إساءة، وأكبر معصية من الجاهل الغر الذي ما استضاء بالعلم.

فيا من تعلم العلم وتلقن الحكمة ثم أعرض عن العمل إنما أنت شاهد على نفسك، ساع في هلاكك؛ لأن المنتظر والمأمول من صاحب العلم تقواه لمولاه، وسعيه في رضا ربه ومحافظته على ما في الكتاب، ثم سألهم سؤال توبيخ وتبكيت فقال: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

أين العقول السليمة؟ أين الآراء السديدة؟ أخفقتم في النقل، أعرضتم عن الكتاب، وفسدتم في العقل فعرضتم

أنفسكم للعذاب، إن العاقل يدله عقله على الهدى ويجنبه الردى، وإن من آثر العذاب على الرحمة، والغواية على الرشد لفاسد العقل، سيئ التدبير، غائب الرشد، ولو كان محنكاً في أمور الدنيا، داهية في طرق السياسة، ماهراً في الكسب، ذكياً في المعيشة.

OBEIKAN.COM

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾

كلمة ﴿رَبَّكَ﴾ إشعار بالرعاية، وسابق المنة، وقدم النعمة، فإن من رباك سيظهرك على من عاداك، (وبالمرصاد) فيها من التخويف والتهويل ما يبهر الألباب، ويخلع النفوس، فهو سبحانه يخفي مكره عن أعدائه حتى يترصدهم فيأخذهم على غرة، فإن عذابه بغتة، وعقوبته فجأة، فهو بالمرصاد لأعدائه يبرمون وينكث ما أبرموا، يدبرون فيقتل ما دبروا، والراصد دائماً أقدر على البطش من المكشوف لعدوه، لأن عنده من فنون الحيل وصنوف المباغتة وأنواع المداهمة ما يبطل على الخصم حيلة، ويعمي سبله، ويظهر خلله.

وقل لي بربك: أي زلزال هذا التهديد لكل كافر رعديد إذا كان الله بالمرصاد، لقد أمر الله عباده أن يقعدوا لأعدائه كل مرصد، وأخبر أنه أعد للجن المردة شهاباً رصداً، لكن لما وصف نفسه الجليلة قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وهذه الكلمة تصلح عنواناً لكل موعظة، ينذر بها العصاة؛ لأنها عامة مخيفة مرعبة، فهو بالمرصاد لمن نقض العهد، وأخلف الوعد، وفجر في الخصومة، وخان الميثاق، وهو بالمرصاد لمن ترك الطاعة،

وارتكب المعصية، وتعدى الحدود، واقترف المحرمات، والله مرصد لأعدائه ويحبك لهم نهاية البؤس، وخاتمة الدمار وطريقة المصرع، وكيفية الأخذ، فلا يلعب أحد على نفسه فينخدع بحلم الرحمن الرحيم، فإنه يمهل ولا يهمل، وليعلم كل عبد أن ربه مطلع على أعماله، عالم بأحواله، بصير بمآله.

إن أحمق الناس من غرته نفسه، وخدعه هواه، وزين له الشيطان طريق المعصية حتى وقع في الفخ.

إن العبد في جموح من طغيانه، وعبث من عدوانه، وغمرة من جهله، لا يحسب مع ربه للعواقب حساباً، مع أن ربه بالمرصاد، لا تخفى عليه خافية، ولا تذهب عليه شاردة، ولا تغيب من علمه غائبة، وانظر إلى تفنن الأخذ في مصارع الأعداء، وتنوع العقوبات في البطش بالخصوم، فمنهم من أخذ بالريح الصرصر؛ فصار أثراً بعد عين، ومنهم من أبيد بالصيحة؛ فصار خبراً للرواة، ومنهم من خسف به؛ فصار قصة للسمر، ومنهم من أغرق، فصار شلواً ممزقاً، كل ذلك لتعلم عظمته، وقوة بأسه، وسعة قدره، وإن رباً قوياً قديراً غنياً يقول لعبد ضعيف فقير حقير كسير: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ لجدير أن يتقي بأسه، ويحذر أخذه، ويخشى عذابه، ومن كان في شك فليطالع سجل العالم، وديوان الحياة، وتاريخ الدهر؛

ليرى مصارع الغابرين، ونكبات المنحرفين، ومنازل الهالكين:

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾.

OBEIKAN.COM

﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾

ما أشد تنكر هذا الإنسان لربه، وما أعظم جحوده لخالقه، خلقه ربه من العدم فشك في وجود ربه، وأطعمه من جوع فشكر غيره، وأمده بالقوة فعصى بها مولاه، هذا الإنسان إن لم يهتد بهدى الله فهو كنود، يمرض فيخشع، فإذا شفاه ربه نسي وتكبر، يفتقر فيخضع، فإذا أغناه الإله طغى وبغى، يبتلى فينكسر ويدعو، فإذا عافاه خالقه تجبر وعتى، عنده آلاف النعم فيكتمها ويطلب غيرها، لديه مئات المواهب فيجحدها ويسأل سواها، ثقيل على الطاعة، خفيف إلى المعصية، بطيء عند الأوامر، سريع عند المناهي، قدري في الطاعة، جبري في المعصية، يتلهف على المفقود، ولا يشكر الله على الموجود.

سماع الأغاني أخف عليه من سماع المثاني، سهرةُ لهوٍ أحب إليه من ساعة مناجاة، رفقة البطالين أشهى لديه من صحبة الصالحين، يأكل الطعام ولا يشكر من أطعمه، ويشرب الشراب ولا يحمد من سقاه، النعم تغمره من كل مكان وهو في شرود ونسيان، خلقه ربه فعبد سواه، وأمره ونهاه فاتبع هواه، لو أهدى له مخلوق خميلة لشكرها، كل نعمة لديه من ربه قد

كفرها، يحبِّر القصائد في مدح العبيد، ولا يمدح ذا العرش المجيد، يسطر المقامات في الثناء على المخلوق الهزيل، ولا يسطر مقامة في الثناء على العزيز الجليل، يقف على أبواب البخلاء، ولا يقف على باب رب الأرض والسماء، مع العلم أنه لا يصله منهم ذرة إلا بقدرة الملك الحق، وبمشيئة الغني الحميد، يمنحه رب المال، فيقول: إنما أوتيته على علم عندي، يوليه ربه قطعة من أرضه فيقول: أليس لي ملك هذه الأرض، بقوتي ملكت وبقدرتي حكمت، يهبه ربه قوة الأعضاء وصحة الجسم فيركض مغروراً ويقترف الخطايا مسروراً.

إذا كان له عند ربه مسألة ذل وتمسكن حتى ينالها، ثم يمر متكبراً جاحداً، إذا أصابته رزية بكى وشكى وتأوه، فإذا كشفها الله ذهب مختالاً فخوراً، إذا جاع انكسرت نفسه، فإذا شبع سهى ولها ولغى، يأكل بلا حمد، ويشرب بلا شكر، ويسكن بلا ثناء، ويتنعم بلا اعتراف، يمن على ربه ركعات بلا خشوع، وتلاوة بلا تدبر، وصدقة بلا نية، ولا يحفظ لربه نعمة الحياة والرزق والمال والولد، والعينين البصيرتين، والأذنين السميعتين، والشفتين واللسان واليدين، والأنف والرجلين، تصب عليه النعم صباً، وتنهمر عليه العطايا انهماراً وهو لئيم مريد عنيد.

على من تلعب يا كفور، ومن تخادع يا مغرور، إن صلى سهى، وإن قرأ لها، وإن تكلم لغا، يأخذ ولا يعطي، يحفظ عدد النعم ووصفها، وينسى شكرها والثناء على من أهداها، جمّاع منّاع طمّاع، إن مرض حسب أيام المرض ولياليه وساعاته، وإن تعافى نسي شهور العافية وأعوامها، إذا أعطى درهماً فهو مثل أُحُدٍ عنده، وإن أعطاه ربه قنطاراً من ذهب فهو ذرة في ميزانه، إلا من آمن وشكر، وأحسن وصبر، وأطاع وذكر.

OBEIKAN.COM

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾

هذا أصدق مدح لربنا جل في علاه. فالله نور هذا العالم، فكل نور شع فمن نوره جل في علاه، فالقلوب في ظلمة حتى يصلها نور توحيده، والبصائر معتمة حتى يطلع عليها نور هدايته، والعالم في دياجير الظلم حتى يشرق عليها نور ربه، فالنفس النيرة إنما استنارت بنور الله لما عرفت شرعه وأبصرت هداه، والعقل النير إنما فتح عليه لما أصابه حظه من نور الله، والكلمة السديدة إنما حسنت وجملت لما أضاءت بنور ربها، والفعل الحسن الراشد إنما صلح لأن الله وهبه من نوره، والمجتمع المستنير إنما استقام أمره لما أدركه نور من نور ربه، فكل نور في العقول والنفوس والأفئدة فمن الملك الحق، فبنوره أشرقت السماء والأرض، وصلح أمر الدنيا والآخرة، واستقام الحال، وطاب المآل، وكتبه سبحانه نور يبصِّر بها العُمْي، ويهدي بها الضلال، ويرشد بها أهل الغي، ورسله نور يبعثهم بالحق فينقذون بإذنه من الهلاك، ويردعون من الردى، وينجون من المعاطب، وصراطه المستقيم نور به يهتدي المهتدون، وعليه يسير العابدون، وفيه يسلك الصادقون، ومن أهل العلم من قال

في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قال: منورهما يعني الشمس والقمر والكواكب، ولا تعارض، فكل نور معنوي أو حي ظاهر أو باطن فمن لدن الحكيم الخبير جل في علاه.

فليطلب النور من عند الله فإن كل أرض لا يشرق عليها نوره فهي أرض ملعونة، وكل قلب لا يبصر نوره قلب غاو، وكل نفس لم تهتد بهداه نفس خاوية، العالم إذا لم يهبه الله من نوره صار عالم سوء، وصاحب زور، وحامل بهتان، والحاكم الذي حرمه الله نوره غادر جبار، غشوم ظلوم، وكل عبد حرم نور ربه فقد تم خسرانه وعظم حرمانه.

أعظم خصائص القرآن أنه نور؛ لأنه من عند الله جل في علاه، فهو الذي تكلم به وأوحاه، وفصل آياته، وأحكم بيناته: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ ومحمد ﷺ نور؛ لأن الله بعثه ووهبه من نوره وهداه بهداه ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيراً﴾.

وبقدر اهتداء العبد ومتابعته وصدقه في طاعته يمنحه ربه نوراً من نوره يبقى معه حتى يصل به إلى جنات النعيم.

والمؤمنون لما صدقوا في العمل بالكتاب واتباع الرسول ﷺ جعل الله نورهم يسعى بين أيديهم جزاءً وفاقاً، ولما أعرض من

أعرض من أعداء الله حرمهم الله ذلك النور فبقوا في الظلمات فما لهم من نور، فنور الفطرة مع نور الهداية، ونور الكتاب مع نور الرسول، ونور البصيرة مع نور الحجة ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

OBEIKAN.COM

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾

فقدره عظيم، ووجه كريم، وفضله واسع، وجوده شامل، ولكن العباد ما قدروا الله حق قدره، خلق الخلق وتكفل بالرزق، وحفظ النفوس، واطلع على السرائر، وعلم النيات، ولكن الناس ما قدروه حق قدره.

عفا وكفا وشفا، علم وحلم وحكم، أغنى وأقنى وأعطى، ساد وجاد وهو رفيع العماد، ولكن الخلق ما قدروه حق قدره.

الأرض جميعاً قبضته، والسماوات مطويات بيمينه، والكون ذرة في ملكه، والخليقة فقيرة إليه، ولكنهم ما قدروا الله حق قدره.

من أشرك معه غيره، وعبد معه سواه، وادعى له نداً، واخترع له مثيلاً، وجعل له شبيهاً، فما قدره حق قدره.

من أقسم بغيره، أو أعطى به وغدر، أو حلف به وفجر، وأخذ نعمه فما شكر، ونسيه وما ذكر، فما قدره حق قدره.

من تعدى حدوده، وارتكب محرماته، واستهزأ بآياته، وألحد في أسمائه وصفاته، فما قدره حق قدره.

OBEIKAN.COM

من حارب أولياءه، وناصر أعداءه، وعصى أمره، وغمط بره، واستهان بعظمته، فما قدره حق قدره.

من أعرض عن كتابه، وشاق رسوله، وكذب بلقائه، وتهاون بوعده ووعيده، فما قدر الله حق قدره.

حق قدره أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ويحب حباً يملك على العبد كل حركة فيه.

حق قدره أن يفوض الأمر إليه، ويتوكل عليه، ويرضى بحكمه، ويستسلم له، وينقاد لأوامره، ويذعن لقضائه.

حق قدره أن لا يخالف، ولا يحارب، ولا يمثل، ولا يشبه، ولا يكيف، ولا تضرب به الأمثال، وتصرف لغيره الأعمال.

حق قدره أن يقصد بالسعي، ويخلص له العمل، ويجرد له التعظيم، ويفرد بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

حق قدره أن يرضى به ولياً ورباً وألهاً وحاكماً وكفيلاً ووكيلاً وحسيباً؛ لأنه وحده المتفرد المتوحد، وهو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

أشرك به أعداؤه، وحاربه خصومه، ونسبوا له الولد والصاحبة، وشبهوه بخلقه؛ لأنهم ما قدروه حق قدره.

كذبوا رسله، وقتلوا أنبياءه، وآذوا أولياءه، وكفروا آلاءه وعطلوا صفاته وأسماءه؛ لأنهم ما قدروه حق قدره.

بارزوه بالمعاصي، وأغضبوه بالذنوب، قابلوه بالسيئات، وأتوه بالخطايا؛ لأنهم ما قدروه حق قدره.

هجروا المساجد، تركوا المصاحف، عطلوا الشريعة، أماتوا الدين، انتهكوا المحرمات، لأنهم ما قدروه حق قدره.

كيف لا يقدر له حق قدره، وصفاته جليلة، وأسماؤه جميلة، ومنه كل نعمة كثيرة أو قليلة.

كيف لا يقدر له حق قدره وهو الذي صور فأبدع، وخلق فأحسن، وأعطى فأغنى، وتولى فنصر.

كيف لا يقدر له حق قدره ومن نظر في مخلوقاته وتأمل مصنوعاته وتفكر في موجوداته هاله ذلك وأدهشه وحيره. فكيف لا يقدر من خلق وأوجد وبرأ وصنع وصور، جل في علاه، كيف لا يقدر من رفع السماء، وبسط الأرض، وأرسى الجبال، وأجرى الماء، وسير الهواء، ومد الضياء، وأوجد كل شيء كما شاء، فهو صاحب الجميل ذو المنة له الملك وله الحمد وله الثناء الحسن.

OBEIKAN.COM

إن من تقدير الله حق قدره طاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وتصديقه فيما أخبر، والرضا بما قدر، والشكر على ما يسر، والحمد له على أنه ستر وغفر، مع متابعة رسوله والعمل بكتابه، والقيام بطاعته وهجر معاصيه، والرضا به رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

OBEIKAN.COM

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾

استوى استواء يليق بجلاله ويتناسب مع كماله، لا يشبهه استواء المخلوق الناقص القصير؛ لأن الله أحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فاستوى هنا بمعنى علا وصعد، وانظر إلى عظمته في هذا الاستواء فإنه سبحانه وتعالى فوق خلقه فله علو الذات، وعلو القهر، وعلو القدر، علا فقهر، وحكم فقدر، واطلع فستر، وعلم فغفر، وانظر إلى اسم الرحمن وما فيه من صفة الرحمة العامة الشاملة، واختار هنا هذا الاسم؛ لأن رحمته غلبت غضبه، فهو رحمن بالدنيا والآخرة، واستوى يدبر ملكه ويصرف خليقته، فهو بائن من خلقه بذاته، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته وليس في مخلوقاته شيء من ذاته، وهو بعلمه مع خلقه، وبحفظه مع أوليائه يعلم ويبصر، ويسمع دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، ويعلم ويرى حبة الخردل في الصخرة الملساء، ما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا تلفظ من همسة إلا يسمعها، وما تدب حركة إلا يطلع عليها، يعلم السر وأخفى من السر، ويعلم ما يكون وما هو كائن، وما لم يكن لو كان، كيف يكون.

على العرش استوى يخلق ويرزق، ويقضي ويحكم، ويقدم ويؤخر، ويعز ويذل، ويولي ويعزل، لا يشغله شأن عن شأن، ولا يحوله مكان ولا يحد بزمان، أخذ بالنواصي وملك الرقاب، نصر أولياءه، وسحق أعداءه، من أحبه قربه، ومن حاربه خذله وأدبه، ترفع إليه المسائل، وتصعد إليه الحاجات، وترفع له الأعمال، وتحصى لديه الأقوال، وتكشف عنده الأحوال، يحفظ من في البر، ويرعى من في البحر، يطعم الجائع، ويسقي الظمآن، ويكسو العاري، ويرد الغائب، ويهدي الضال، ويشافي المريض ويعافي المبتلى، وينصر المظلوم، وينجي الملهوف ويعطي المسكين، ويكشف الكرب، ويزيل الخطب، ويسهل الأمر الصعب، ويغفر الذنب، ويقبل التوبة.

على العرش استوى، بنى السماء، وبسط الأرض، وقدّر الأوقات، وأوجد المخلوقات، وبعدما طحى ودهى وأرسى الجبال، ومهد الفجاج، وأخرج الماء والمرعى، ووهب الأرزاق، وقدر الآجال، وكتب المقادير، وأحصى كل شيء عدداً، خلق الخلق بحسبان، أتقن صنعه، وأحسن خلقه، وأبدع موجوداته، واستوى على العرش ليتفرد بالملك وحده، وعلو القهر والقدر وحده، فليس له شريك في ربوبيته، ولا نديد في ألوهيته، ولا شبيه أو مثيل في أسمائه وصفاته، من نازعه الملك محقه، ومن نازعه الكبرياء والعظمة قصمه.

وانظر إشراقة الكلمات الثلاث وجمالها وفخامتها وهي: الرحمن، والعرش، واستوى.

فالرحمن: إعلام لعباده برحمته مع قوة قهره وعلو قدره، ثم هي على صفة المبالغة لعموم الرحمة وعظمتها. والعرش: سرير الملك مع ما في هذه الكلمة من عزة وجبروت وقوة وجلال، وكلمة استوى: فيها من معاني العلو والرفعة والشرف والسؤدد والمجد ما يفوق الأوصاف، ويعجز العقول، ويحير الأفكار، فسبحانه من ملك جبار، ومن عزيز غفار.

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين

OBEIKAN.COM

OBEIKAN.COM